العدد العاشر

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون: ٢٤٤٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

السنة الثالثة

الاشتراكات
١٠٠ من سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
الطلاب وجنود الجيش
٨ من سنة كاملة
٤٠ من نصف سنة
٢٥ من ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

ذو الحجة سنة ١٣٧٣ — أغسطس سنة ١٩٥٤

قداس كنيسة الأرواح!

فى قداس مسائى أقيم فى كنيسة الأرواح[1] فى ٢٧ (يونيو) فى لندن، ونقلته محطة الإذاعة البريطانية (بالتليفزيون)، أذيعت هذه (الترنيمة) التى ننقلها بنصها:

« Let the song go round the earth
Over lands where Islam's sway
Darkly broods o'er home and hearth
Cast their bonds away. »

وترجمتها:

دع الأغنية تدور حول الأرض
فوق بلاد فيها سيطرة الإسلام
ترقد بظلماتها فوق كل موطن وبيت
اضربوا بعهودهم عرض الحائط

* * *

لم أستغرب ذلك حين علمت به، فإن سياسة لندن لم تزل دائما سياسة العداء

---

(١) All Souls Church

للإسلام والمسلمين ، وقد صدق دجوفارا (Djuvara) وزير رومانيا يوم قال : « إن إنجلترا بعد سبعة قرون من زمان (سانوتو Sanuto) قد حققت لنفسها الأمل الذى كان يحلم به (سانوتو) » — والذى كتبه (سانوتو) فى كتابه سنة ١٣٠٦ م هو الدعوة إلى قتال المسلمين حيث وُجدوا واستئصال دولتهم !

وليس شأنى فى هذه الصفحات أن أكتب مقالاً سياسيا عن عدوان الإنجليز ، أو عن سخافة (الترنيمة) التى عزفتها موسيقى كنيسة الأرواح ، ولكنى أريد أن أقرر حقائق آن أن نواجهها كما هى .

إن ترنيمة قداس لندن تعنى أولا أن روح الحقد على الإسلام سارية لم تقف ، فإذا علمت أن الذين رددوها واستمعوا إليها هم أفراد الأمة التى تجعل فى صدر ألقاب ملكها أنه حامى الإيمان المسيحى والكنيسة ، علمت « الحقيقة السوداء » وراء الاستعمار البريطانى فى حاضره وماضيه . . . . وفهمت كثيرا من دخائله منذ مؤامرة إنجلترا وحلفائها على خلافة آل عثمان : فى الثورة العربية على الأتراك ، وفى فلسطين وفى إفريقيا ، وفى العراق ، وإمارات الجزيرة ، وفى إيران ، وفى الهند قبل تقسيمها وبعده ، وفى الملايو ، وغيرها كثير ، وكلها بلاد إسلامية كانت « فيها سيطرة الإسلام ترقد بظلماتها فوق كل موطن وبيت » ! !

لقد تحدثت « المسلمون » عن هذه « الحقيقة السوداء » أكثر من مرة ، وجعلت بيانها من سياستها فى مخاطبة المسلمين وفى تفسير تاريخهم الطويل ، مع الإنجليز وغير الإنجليز ، وقالت فى مطلع سنتها الثانية ما تكرره اليوم لأنه من الحق الذى لا تبلى جدته ، ومن الواقع الذى لا نزال فى قبضته ، حتى يأذن الله بنور يبدد هذا الظلام ، ظلام الحقد الذى فضحه القداس لاظلام سيطرة الإسلام !

قالت « المسلمون » :

إذا كان جهل الأمة الإسلامية بنفسها ورسالتها جعلها تتهالك أمام الفتنة العاتية والثقافة المسمومة التى نظمتها مؤامرات أعداء الإسلام الكثيرين ، فإن جهلها بهؤلاء الأعداء قد مكّن لمؤامراتهم كل تمكين ، وجعلهم ينالون منها ويعبثون بها وهى فى غفلة تامة عما يراد بها . . . وكم من عدو لبس لها ثوب صديق فآوته وأكرمته ،

بل وتتلمذت عليه وأخذت عنه ، وربما وضعته موضع الزعامة وهو يجتث أصول عقيدتها ومقومات شخصيتها . . . لذلك كانت معرفة المسلمين لأعدائهم أساسا يجب أن يسبق كل خطة وأن تتحد به سياسة العالم الإسلامى . و (العداء) الذى عاناه الإسلام والمسلمون قديم ، بدأت طلائعه مع طلائع الإسلام فى حجر نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكان وجهه السافر الصريح أنه عداء للعقيدة والدعوة ، ونكران للوحى وتحد لأمر الله عز وجل ، وكانت جريمة هذا العداء فى ميزان أصحاب الدعوة جريمة بهذا المعنى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » ، واستمرت المعركة بين العقيدة وأعدائها ولكن طبيعة المعركة بقيت واحدة لا تتغير : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . ولما حادت المعركة عن طبيعتها يوما فى أنفس نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقبهم الله بالهزيمة فى أحد : « وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

وهكذا مضت معارك الإسلام واتصلت حلقاتها ، وتألبت فيها على المسلمين قوى رهيبة ما أكثر ما اختلفت فيما بينها ولكنها اتفقت دائما على مطاردة الإسلام ، ولم تأل جهدا فى استئصال شأفته . وكتب تاريخنا من ذلك أسفارا دامية يمكن أن نجعل عنوانها الآية التى نسيها المسلمون : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » — وإذا صح أن بعضا من هذه القوى لم يغره بالعالم الإسلامى إلا خيراته وموارده الاقتصادية ، ولم يدفعه إلى الاعتداء عليه هوى دينى معلن أو مستتر . . . إذا صح هذا ، فإن هؤلاء المعتدين ما لبثوا أن وجدوا دون مطامعهم المادية عقبة كؤودا يجب أن يحسبوا حسابها ، وجدوا دينا من نوع جديد ، وكتابا سماويا قويا صريحا غير الطلاسم التى ألفوها . . وجدوا قرآنا يتحدث عن العبادة كما يتحدث عن القتال ، ويجعل بذل الدم فى سبيل الحق أعز القربات إلى الله ... وجدوا نظاما لا يكتفى بالدعوة الجميلة النظرية إلى مكارم الأخلاق ولكنه يفرض لحمايتها حدودا رهيبة فى قوانين الأمة ، ويجعل تطبيق هذه القوانين شرط صحة الإيمان ،

وجدوا شريعة تزرع فى القلوب حبا عاليا لا يسمح بفرقة يستفيد منها غاصب ، وتكفل للمجتمع نظافة لا تبيح المغريات أن تنال من تماسك الأمة شيئا ، وتشعل فى المشاعر جذوة الويل لمن يستثيرها فيصلى نارها . . .

ولو أن هؤلاء المعتدين أرادوا حقا أو تجارة بريئة ما عناهم من كل ذلك شىء ، ولكنهم معتدون ؛ والمعتدى ضراوة تنكر الحدود ، وغاية لا يدركها إلا بترويض فريسته حتى تستسلم له ، فكيف يسمح إذاً بسلطان دين خطير كالإسلام ؟ إن من مهمته إذا وجد الدين ذا سلطان أن يقوضه ، وإذا وجده نائما أن يقطع أسباب يقظته ... وهكذا يلتقى الأعداء جميعا فى محاربتهم للإسلام وإن تباينت أساليبهم ، فلإنجلترا أسلوبها ، ولأمريكا أسلوبها ، ولفرنسا أسلوبها ، ولهولندا أسلوبها ، ولروسيا أسلوبها ، ولإيطاليا أسلوبها ، وللحبشة أسلوبها ، ولأسبانيا أسلوبها ، وللهندوك أسلوبهم ... وهلم جرا . . . وهلم جرجرة .

وأنت حين تقرأ التاريخ فى ضوء هذا المعنى تفهم أشياء كثيرة ، وحين تقرأ الواقع بعد ذلك تتجلى لك حقائق خطيرة . ترى مثلا — وهو مثل قريب — كيف قضت تركيا — حين كانت مقر الخلافة العثمانية — زمنا طويلا تعانى المر من عداء الدول ومؤامراتها وكيف تألبت عليها قوى الدنيا من حرب إلى حرب ومن دسيسة إلى دسيسة ، ولكنا نرى تركيا نفسها بعد أن ذهبت عنها الخلافة ، وبعد أن سلخ أتاتورك أوضاعها من أحكام الإسلام وألبسها القبعة وحرمها من اللغة العربية (وإن كان لم يستطع أن يقطع شجرة الإسلام من جذورها ، لأن جذورها فى قلوب لا يحكمها الجيش والقانون وفى يد الله الذى أفضى إليه أتاتورك بما قدم وهو عنده الآن يلقى حسابه) .. نرى تركيا فى الأعوام الثلاثين الأخيرة سالمة آمنة لا يعتدى عليها أحد ، فإذا ذكرنا مع ذلك قول الله سبحانه : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ! » لم يسعنا إلا أن نقول : صدق الله العظيم ! !

وقد حدثنى رجل كبير فى العالم الإسلامى ، ويروى هذا الخبر معه ثلاثة آخرون كبار ، أن الذى قام به أتاتورك من إبعاد تركيا عن الإسلام لم يكن من بنات فكره ولا عقله المدهش ! ولكنها شروط أملتها عليه الدول فى لوزان ، ويعلم ذلك زملاؤه الكبار الذين لا يزال بعضهم حيا يرزق !

وقد عجب كثيرون حين استفتح الأستاذ الدكتور مصطفى الحفناوى محاضرته عن قناة السويس فى نادى الجيش المصرى بقوله : إنه وقع على وثيقة خطيرة تثبت أن اقتراح حفر القناة مشروع قديم للصليبيين أريد به أن تقام فى منطقة القناة دولة صليبية تمتد من بورسعيد إلى بولاق فى القاهرة لتمزق كيان الدولة الإسلامية . . . عجبوا من ذلك ، ولو أضاف الدكتور إلى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين اقترح عليه أن يحفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر قال : أخشى على المسلمين من الفرنجة ، إذاً لزاد عجبهم ، ولعلموا أن المحور الذى تدور عليه حوادث التاريخ محور آخر تماماً غير الذى تعلمناه فى منهج « دانلوب » ، ولأدركوا من ذلك أنه ما لم يتغير الأساس الذى قامت عليه معارفنا فى عهود الذل والحيرة ، وما لم تتقرر مناهج التعليم والتربية وسياسة الأمة كلها على فلسفة واحدة فى معرفة العدو والصديق ، وأساس المداوة وأساس الصداقة ، ما لم يتحقق ذلك كله فإن كل أمل سراب ، وكل الزهور والرياحين التى تأخذ الأبصار حيناً ، ليس يحملها إلا شوك ضارب الجذور ، لا تلبث هى أن تذبل عليه ثم تجف ، ويبقى الشوك القديم ليقض المضجع ويدمى الأيدى الغافلة . . .

* * *

ثم ماذا كان فى سيطرة الإسلام حتى عدها أهل لندن سيطرة ذات ظلمات ؟

أينكر مؤرخ منصف أن الإنجليز كانوا يعيشون فى الأكواخ والجهالة يوم كانت حضارة الإسلام تظل بعلمها وعدلها غرب أوربا ، ويوم كان قسس روما يتخرجون من قرطبة وغرناطة ؟

ألم يقل دجوفارا : « فى أواخر القرن الثانى عشر امتد سلطان العرب من الهند إلى الإطلنطى وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وأرقى من حضارة إكس لا شبل وباريس » ؟

أوقد بلغ بنا الذل والضياع أن ينكر الإنجليز على الإسلام ماضيه ويمسخوه هذا المسخ ؟

ألأن الإسلام أكرم المسيحية وشمل أهلها بعطفه وأعاشهم لا يجدون غير العدل والمرحمة فى كنفه ؟ وقد فعل ذلك والسلطان سلطانه والسيف فى يده والشرق والغرب طوع أمره ؟

ألم يقل الأب (ميشـون) ، وردد ذلك دوكاسترى وغوستاف لوبون : « إن من المحزن للأمم المسيحية أن يكون التسامح الدينى الذى هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين » ؟

إذا كان مع انتشار الإسلام الحضارة

وإذا كان مع سلـطانه التســـامح

فأية ظلمات فى سيطرته يا كنيسة الأرواح ؟

شيئاً من العدل والحيـــاء !

أتريدوننا أن نقارن بين ماض وماض ؟

لقد فعل ذلك من قبل وزير لآل عثمان فأسكت نفراً منكم كانوا يجادلونه ، ونقوله اليوم وستسكتون كما سكتوا . . . قال : « إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب فى الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم .

ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين ، وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام ؛ فما هجس فى ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلا ، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثمانى تقوم فى وجهه الملة ويحاجه مثل زنبيلي على أفندى شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة : ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية ، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين أظهرنا حتى فى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس ، وكلهم كانوا وافرين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا بين أظهركم مسلما واحداً واشترطتم عليه

إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان فى أسبانيا ملايين من المسلمين ، وكان فى جنوبى فرنسا وفى شمالى إيطاليا وفى جنوبيها مئات ألوف منهم ، ولبثوا فى هاتيك الأوطان أعصراً مديدة ، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق فى جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام .

ولقد طفت فى بلاد أسبانية كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم » فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جواباً .

ويتضح لك مبلغ الحق فيما قاله وزير آل عثمان ، إذا أضفت إليه ما ذكره المحقق شكيب أرسلان رحمه الله فى تعليقاته على كتاب[1] لوثروب ستودارد (Lothrop Stoddard) :

« لقد زحف الصليبيون واستولوا فعلا على بيت المقدس فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وكان منهم ما كان من الفظائع التى يعترف مؤرخوهم بها فى جميع الأماكن التى اجتازوها من بلاد الإسلام ، ولما سقطت القدس فى أيديهم بعد قتال شديد استمر زيادة على أربعين يوماً ارتكبوا فى ظل القبر المقدس — الذى زعموا أنهم زاحفون لتطهيره من أيدى أمة غير طاهرة — من القتل العام والتفنن فى القسوة ما يندر وجود مثله فى تاريخ البشرية من أول ما عرف التاريخ .

قال المؤرخ أبو الفداء : ولبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعاً ، وقتل من المسلمين فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف ، وغنموا مالا يقع عليه الإحصاء ، ووصل المستنفرون إلى بغداد فى رمضان فاجتمع أهل بغداد فى الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى إنهم أفطروا من عظم ما جرى عليهم » .

* * *

(١) حاضر العالم الإسلامى .

من المتعصب منا أيها الناس ؟ ومن المعتدى الضارى ؟

* * *

أيها المسلمون :

لسنا ندعوكم بهذه الكلمات إلى عدوان ، ولكننا ندعوكم إلى أن ترفضوا العدوان ، وإلى أن تعرفوا لدينكم حقه ولأنفسكم حقها ، وحسبكم ما ضيعتم من عمركم وكرامتكم ، فاتقوا الله فى تاريخ كريم لا يزال بين أيديكم ، وفى ميراث أعزه الله ومسخته قوى الظلم على أعينكم . . واستبينوا حقيقة المعركة التى عشتم هذه القرون فى أتونها ، وتسلحوا لها بسلاحها .

سعيد رمضان



شهـــــادة

إن قوة الإسلام السياسية الكبرى هى فى إعطائه لمختلف الشعوب والعناصر ذلك الاشتراك فى التفكير : أى فى قيامه على مبدأ التأليف بين أفكار مختلف الشعوب أو العناصر المتمذهبة به .

إن القوانين المدنية المنفصلة تمام الانفصال عن القوانين الدينية فى الغرب ليست منفصلة عند المسلمين التابعين لأحكام القرآن . وفى اعتقاد المسلمين أن كل قوة مصدرها الله ، وأن هذه القوة يجب الخضوع لها واحترامها كيفما كانت نتائجها لأنها تمثل إرادة الله ...

« غوستاف لوبون »

الدعاية الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ - نقصد بالدعاية الإسلامية نوعين من الدعاية ، أولاهما الدعاية إلى الوحدة الإسلامية وجمع شمل المسلمين والتواصى بينهم بالحق والصبر ، كما وصف الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصالحين فى قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوْا بالحق وتواصوا بالصبر » .

والنوع الثانى من الدعاية الدعوة إلى الإسلام بين الجاهلين به ، والتعريف به لمن لم يعرفوه ، وتأليف قلوب الذين لم يألفوه ، وقد نكروه وما عرفوه .

٢ — ولقد قصرنا معشر المسلمين فى النوعين من الدعاية وأهملناهما حتى صارت الدعوة إليهما عجبا من العجب ، وأمراً غريبا فى ذاته ؛ بل حتى صارت الدعوة إليهما تحتاج إلى مهارة فى الدعاية ؛ وبهذا ضعفت معانى الإسلام ، وصارت حقائقه الخالدة غرائب غير مألوفة ، وعجائب غير معروفة ، وصار الداعى إليها عُرْضَةً لسخرية الساخرين ، واستهزاء المستهزئين ، وكأنه لا يدعو بدعاية القرآن الكريم ، وينطق بأوامره ، وكأن أحداً لم يقرأ قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وكأن أحدا لم يعرف أن أخص صفات هذه الأمة ، وأفضل مزاياها ، ومناط عزها ، وطريق خيرها — أن تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، كما قال تعالى : « كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

٣ — وإن أخص أنواع هذه الفريضة الخالدة ، فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هى فى هذين الأمرين : الدعاية إلى الوحدة المقدسة ، والدعاية إلى الإسلام بين جاهليه .

وقد أفضنا القول فى الدعوة إلى الوحدة فى مناسبات شتى ، ولن نَمَلَّ من تكرار الدعوة إليها ما دام المسلمون منقسمين ، وما دامت الأرض قد توزَّعتهم ، وما دام أعداؤهم يريدونهم نَهْبًا مقسوماً ؛ ويتربصون بهم الدوائر ، ويريدون أن يلتهموهم قسما قسما ، وكلما رأوا الجمع تتقارب أجزاؤه والشمل يلتئم دسوا بينهم من يفرقهم ، ويدعو إلى التردد والهزيمة فى صفوفهم ، ثم صاحوا صيحاتهم ليشجعوا دعاة الذعر ، حتى يكون أمر الأمة الإسلامية بدداً وقد تفرقت حَزَائق .

ما دامت الحال هى الحال ، فالدعوة إلى الوحدة بالقول والعمل واجب محتوم ، وفرض محكم ، لا يُخْرجنا عن الإثم إلا أن نتحد ، ولا يسقط عنا الوِزْرَ إلا أن نجتمع .

٤ — وإنا نكتب هذا والحج مؤتمر الإسلام الأكبر منعقد ، ووفود البلاد الإسلامية فى ضيافة الرحمن يؤدون النسك ، ويطوفون ببيت الله الحرام ، ويتنسمون النسيم المقدس فى بلد الله الأقدس ، ويستشرفون معانى التنزيل فى منازل الوحى ، ومهد النبوة الأولى ، ويتصورون محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يمشى فى بطحاء مكة ، يدعو إلى ربه مصابرا المشركين ، يؤذونه فيتحمل ، ويسخرون منه ومن دعوته ، وهو ومن معه عن لهوهم معرضون ، لا ينى عن دعوة ربه ، ولو تضافر الشرك ، حتى إذا خوطب من عمه أن يكف عن بعض ما يقول صاح قائلا : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما فعلت » ويتذكرون وهم فى هذه المدارك النبوية الصحابة الأولين ، وهم يقاومون الشرك كله وقد حميت العصبية الجاهلية ، فكانت حمما يخرج من أفواههم ، ويجرى بالأذى من أقوالهم وأفعالهم ، تذكروا آل ياسر وعذاب الجاهلية ، وتذكروا خبَّاب بن الأرت ، وَوَدَكُ ظهره يكوى بالحديد المحمى ، وهو لا ينى عن ذكر ربه ، فى هذا الحرم المقدس ذكريات أولئك الصابرين ، وقد مستهم البأساء والضراء حتى زلزلوا كما قال الله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

حتى إذا قضى أولئك الحجيج ما قضوا فى ربوع مكة ، وجاء يوم عرفة رأوا المجتمع الحسى الذى يجمع المسلمين ، وتذكروا وهم وقوف فى عرفات موقف النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجمع أحكام الإسلام ، ويودع المسلمين ، ويستودعهم شريعته الأبدية ، ويدعوهم إلى أن يكونوا حفظة شريعته ، والداعين إلى كتابه وسنته ، وهو الذى كان يقول فيهم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : تركت فيكم كتاب الله وسنة رسوله » .

٥ — فى هذا المؤتمر الأكبر مظهر وحدة المسلمين فهل لنا أن نجعل ذلك المظهر حقيقة ؟ نعم إن ذلك ممكن ، بل سهل ، بل هو الحقيقة إن فهمنا الحج بمعناه ، وفهمنا أنه مجتمع الإسلام فى كعبة الإسلام وقبلة المسلمين ، ومكان الدعوة الأولى والصبر الأول ، والصدمة الأولى التى جعلت ذلك الصبر جليلا فى معناه ، بعيد الأثر فى مغزاه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ولقد كان النبي وصحابته من بعده يتخذون من الحج مؤتمراً يتبادلون فيه معانى الوحدة ؛ فأول حج بعد الفتح المبين كان فى السنة التاسعة وقد تولى إمرته أبو بكر ، وفى الجمع الحاشد تليت سورة براءة ، وفيها قوانين القتال ، ونظام المعاهدات ؛ والعلاقات الدولية الإسلامية ، فكان المؤتمر سياسيا . وفى السنة العاشرة كانت حجة الوداع ، وفيها أعلن النبي صلى الله عليه وسلم تمام الإسلام ، ونزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ، وفيه أشهد النبي ربه على المسلمين مجتمعين بأنه بلّغ دعوته ، ثم كان الخلفاء الراشدون من بعده يتخذون من الحج مؤتمرا إسلاميا .

فهل لنا أن نجعل من الحج مؤتمرا إسلاميا دائما مستمرا نتبادل فيه شئون الدين والاجتماع والاقتصاد والسياسة ؟ إنه يكون حينئذ هو طريق الوحدة أو بالأحرى هو حقيقتها .

٦ — هذه إشارة إلى الدعوة إلى الوحدة ، فلننتقل إلى القسم الثانى وهو الدعاية إلى الإسلام ، لقد أهملنا ذلك الجزء فى الماضى إهمالا كبيرا ، وما زلنا على ذلك

الإهمال ، وهو فرض كفاية على جمهور المسلمين ، لقد نمنا فى بلادنا ، واستنام منا من كان فرض الكفاية بالنسبة له فرض عين فى هذا الباب ، استنام الذين كان عليهم أن يبشروا بالإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يتكلموا عن غير المسلمين إلا بأنهم أهل النار ، فإن سألتهم أهم علموا الإسلام على حقيقته حتى يكونوا جاحدين بعد أن عرفوا ؟ قال قائل المقصرين : إن عليهم أن يعلموا : أى أن على أهل أمريكا واستراليا وكندا ، ومجاهل إفريقية ، وشمال أوروبا وأهل الصين واليابان — على هؤلاء أن يعلموا الإسلام ، وهم مسئولون إذا لم يعلموه ، ونحن الذين نعلمه وعلينا واجب تبليغه لا تقصير منا إذا لم نعلمهم ، ولا ذنب علينا إذا لم نبينه لهم ، فالنعيم لنا مع سكوتنا عن الدعوة لدين الله ، وبقاء جهل الجاهلين فى جهلهم ، والجحيم لهم جميعا لأنهم لم يتعلموا العربية ، ويعرفوا القرآن الكريم والسنة النبوية ، والآراء الفقهية للتابعين والمجتهدين ! ! إنه منطق الكسل ، والتهاون ، بل الهوان .

٧ — إن علينا جميعا واجب الدعاية للإسلام ، والتبشير به ، والتعريف به بين الجاهلين ، لنقيم حجة الله عليهم ، ونسقط تعلاتهم يوم القيامة ، وإلا فإنا نبوء بإثمهم وإثمنا ، وعلينا وزر جهلهم بمقدار علمنا ، ذلك لأن وزر الجاهل على العالم .

وإن الميثاق الذى أخذه الله تعالى على العلماء أن يبينوا علمهم للناس ، ويكشفوه للجاهلين يوجب علينا التبليغ . لقد آتانا الله تعالى علم الكتاب ، فحق علينا أن نبين لغير المسلم ما اشتمل عليه ، وإلا ما قمنا بحقه ، ولكان تقصيرنا نكثاً فى عهدنا ، ونقضاً لميثاق ربنا ، ولقد قال رب العالمين فى حقه على العلماء : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ، فبئسما يشترون » هذا ميثاق الله أخذه على أهل الكتاب الذين سبقونا أن يبينوه فنبذوه وراء ظهورهم ، وهذا الميثاق علينا أشد وأوثق فماذا

صنعنا به ؟ أهملناه ، وتركناه وراء ظهورنا ، ولم نقم بحق الدعوة الواجب علينا ، فحق علينا ما حق عليهم :

٨ — إننا بإهمالنا الدعوة إلى الإسلام قد كتمنا شريعة ربنا فحقت علينا اللعنة مالم ننفض عن أنفسنا غبار الكسل ، ونسير فى سبيل الدعوة المحمدية ، ومعنا كتاب الله وهو الحجة لنا ، والحجة علينا . وإن الله قد صرح بأن الذين يكتمون العلم بعد الهدى والبينات ملعونون فى الأرض والسماء ، فقد قال تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا ، وبيّنوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

إننا بإهمالنا الدعوة إلى الإسلام تنطبق علينا هذه الآية الكريمة ، ونستحق لعنة الله ولعنة من فى الأرض ومن فى السماء ، لأننا كتمنا البينات والهدى بعد أن بيَّن الله تعالى فى الكتاب ما بيَّن ؛ ولا خلاص لنا من هذه اللعنة إلا أن نتوب عن تقصيرنا ، ونصلح من أمورنا ، ونتجه إلى الدعوة إلى دينه وكشف حقيقته للذين يجهلونه .

٩ — وإن الله سبحانه وتعالى يقول فى محكم كتابه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » وإن هذا الخطاب خوطب به كل مؤمن خوطب بالقرآن من لدن البعث المحمدى إلى الآن ، فليس المخاطب به شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا دليل على الخصوص النبوى ، وما دام لا دليل على الخصوص فالمخاطب به العموم ، لعموم التكليف ، ولعموم الرسالة المحمدية ، ولمخاطبة الأجيال كلها بها .

ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع بعد أن بين الرسالة ، وأشهد ربه على البيان : « ليُعلِم الحاضر منكم الغائب » وكل عالم بالرسالة المحمدية هو من

حاضريها وكل من لم يعلم الرسالة على وجهها فهو من الغائبين عنها ، فحق على الحاضرين العالمين أن يعلموا الجاهلين الغائبين .

١٠ — إن فضل الهداية للضالين لا يعدله فضل ، وثوابها لا يعدله ثواب ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

وإن الباب مفتوح لهذا النوع من الثواب غير المحدود ، فإن الجاهلين بالإسلام لا يحصون عدداً ، وحق على الناس أن يفتحوا لهم باب النور ليهتدوا ، وأن يكشفوا عنهم ظلمات الجهالة ليدركوا ، وأن يدعوهم بدعاية الرحمن لتعم رحمته ، وتضيء الكون هدايته ، ويكون الإسلام فى وسط تلك الدُّجُنَّةِ الحالكة رحمة للناس كافة ؛ ويتحقق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

إن هذا النور الذى احتبسه المسلمون فى ربوعهم ، فلم يعلنوه ولم يكشفوه يجب أن يضيء الكون كله ، وعسى أن يكون من بين الضالين الذين نراهم اليوم من يحبهم الله ويحبونه ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلةٍ على المؤمنين ، أعزةٍ على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

١١ — إن فى أمريكا وأوروبا واستراليا وكندا عقولا تتطلع لحقائق الإسلام تريد معرفتها ، فهل نضن عليهم بالبيان . وإن المبشرين من المسيحيين يسيرون ووراءهم حكوماتهم لتنصير الزنوج من أهل إفريقية ويمدهم أقوامهم بالعون من المال وكل ما يسهل لهم دعايتهم ، فهل يسوغ أن يقف المسلمون ؟

لقد وجدنا بعض علماء السودان قام بحق هذه الدعاية ، فكان الإسلام أسرع

إلى القلوب ، وأهدى لنفوسهم ، ولـكن ضاقت يده ، فـكان حقاً على الأغنياء أن يمدوا أمثاله ممن يقومون بحق الإسلام عليهم ، وبميثاق العلم الذى أخذه على العلماء أن يبينوا ، ولا يكتموا .

وإن الهيئات العلمية فى أمريكا تريد معرفة الإسلام من أهله ، ومن ذويه وربما لا يكون لنا مطمع فى هذه الهيئات ولـكن أليس من حق الإسلام علينا أن نبينه ؟ فإن لم يؤمنوا فما علينا من إثم بعد أن أدينا واجبنا ، والله سبحانه وتعالى قال لنبيه الـكريم : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولـكن الله يهدى من يشاء » .

١٢ — وإن هنا أمراً له خطر وشأن ، ذلك أننا علمنا أن أهل ألمانيا يتطلعون إلى الإسلام ، ولا تتطلع إليه الهيئات العلمية على أنه نوع من الدراسات ؛ بل يتطلع له الشعب ليؤمنوا ، حتى لقد قال قائل إنه فى بضعة أيام أسلم فى مدينة واحدة نحو أربعة آلاف ، وإن الإنجليز عند ما علموا ذلك أدركوا مغبته عليهم وعلى استعمارهم ، فأرادوا أن يعلم الألمان الإسلام الشائه ، لا الإسلام الحقيقى ؛ ولذلك أرسلوا إليهم بعوثاً من القديانية يعلمونهم الإسلام . أفيسوغ لنا اليوم أن نسكت ؟ إن علينا أن نعمل ، وعلينا من الآن أن نـكون الطائفة التى تنفر إلى الألمـان ممن يجيدون الألمـانية ، وإلى الأمريكان ممن يجيدون الإنجليزية ؛ وعلى أهل الرأى أن يمدوا بآرائهم ، وذوى المال أن يمدوا بمالهم ، وعسى أن تقوم الحجة للإسلام فى هذا العصر ، كما قال على رضى الله عنه : «لا يخلو وجه الأرض من قائم لله بحجة » وإن تعليم أولئك الإسلام واجب فى أعناقنا لا نخلو من إثم التقصير إلا إذا قمنا بتبليغ رسـالة الله تعالى وتبيين دينه ، وتعليم الناس حقيقته وما يدعو إليه ، ولنذكر كلمة على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا يسأل الجهلاء لم لَمْ يتعلموا ، حتى يسأل العلماء لِمَ لَمْ يعلّموا »

اللهم هيىء لنا سبيل الرشاد ، ووفقنا إلى الحق والسداد .

بين الدين والطائفية

للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي

المراقب العام للاخوان المسلمين فى سوريا

من أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية فى تاريخ الإنسان ، تدينه العميق الذى يجعله خاضعاً لإله قدير ، يرجو رحمته ويخاف عذابه ، ومن أبرز خصائص الديانات أثرها الكبير فى توجيه الأفراد والجماهير ، وسلطانها على مشاعرهم واتجاهاتهم . ومن هنا لعبت الديانات دوراً كبيرا فى قيام الحضارات ونشوء الأمم واندثارها ، ولا تكاد تجد دينا خلا من النزعة الإنسانية الرحيمة ؛ فكل الأديان تأمر بالرفق ، وتحث على الحب ، وتنهى عن الخصام ، وتمقت القسوة والأذى ، وهى بذلك عامل من أكبر العوامل فى نشر السلام بين الناس ، وقيام الثقة والتعاون بينهم فى شئون معاشهم ومعاملاتهم .

وأدياننا الكبرى [1] فى الشرق العربى والإسلامى تلتقى عند هذا الغرض فى كثير من آدابها وشرائعها . . وحسبك من المسيحية قول السيد المسيح عليه السلام : « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » وما كان يبديه المسيح من عطف على الفقراء ورحمة بالبائسين وصفح عن المسيئين . ولقد عاش ما عاش من حياته بين الناس وهو مثلهم الأعلى فى الحب والرحمة والتواضع والبر بالناس أجمعين .

أما الإسلام فلا تكاد تحصى آيات القرآن فى الحب والصفح والرحمة وعمل الخير للناس ، ولا تكاد تحصى الأحاديث التى تحث على ذلك وترغب فيه ، وحسبك من الإسلام قول الله تبارك وتعالى فى وصف عباده المؤمنين « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره » وقوله أيضاً « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

---

(١) إنما نستعمل كلمة الأديان على قاعدة قول الله « لكم دينكم ولى دين » .
« المسلمون »

وهكذا تتعاون الديانات على نشر الوئام بين الناس ، وترغيبهم فى العيش معا إخوة متحابين ، لا يعتدى بعضهم على بعض ، ولا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يحول اختلاف دياناتهم دون اطمئنانهم جميعاً على حرياتهم وأموالهم وأعراضهم وكفاءاتهم . بل إن القرآن لينص على أن اختلاف الديانات والحكم بينها فيما تختلف فيه ، يجب أن يوكل أمره إلى الله وحده ، والله وحده هو الذى يحكم يوم القيامة بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون . يقول الله تبارك وتعالى : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم .. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » بل إن الإسلام ليقرر أن اختلاف الناس فى أديانهم وعقائدهم أمر طبيعى من ضرورات الحياة ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

بهذه الروح اتسع تاريخ الديانات عندنا لتسجيل أروع الصفحات فى تاريخ التعاون على الخير بين أبنائها تعاوناً أدى إلى خير الإنسانية وتقدمها . وهل ننسى ما كان لتعاون الإسلام والمسيحية فى العصر العباسى من آثار عظيمة فى العلم والثقافة ؟ وهل ننسى كيف كان يجتمع المسلم والمسيحى والمجوسى فى حلقة الخلفاء ينثر كل منهم مافى كنانته من علم وأدب ، والخلفاء يضفون عليهم جميعاً ظلا ظليلا من الرعاية والإكرام ؟

فى تلك العصور كان من أبرز أخلاقنا الاجتماعية تعاوننا على بأساء الحياة وضرائها مع اختلاف أدياننا وعقائدنا ؛ حتى اشتركنا فى كثير من الحروب جنباً إلى جنب نقاوم الغزاة ونطرد المعتدين .. ولست أرى فى التاريخ أروع من موقف شيخ الإسلام ابن تيمية حين جاء إلى أمير التتار يطلب إليه إطلاق سراح الأسرى ، فأجابه الأمير التتارى إلى إطلاق سراح أسرى المسلمين وحدهم دون المسيحيين واليهود ، فأبى شيخ الإسلام رحمه الله وقال : لابد من إطلاق سراح هؤلاء أيضاً فإنهم أهل ذمتنا لهم ذمة الله ورسوله ، فأطلق الأمير سراحهم جميعاً .. هذا مثل من أمثلة السمو فى أخلاقنا الاجتماعية يومئذ ، تعلم منها أننا فهمنا الدين أداة خير وعنوان تعاون وأساس خلق كريم ، من أبرز خصائصه الشهامة والنجدة والوفاء بالعهد . وهذا هو التدين .. وهذه هى روح الدين فى حقيقته الإلهية الخالدة ..

ويوم ينقلب الدين مفهوما ضيقا يتميز بالحقد والعداء ، ويبعث على النزاع والشحناء ، وينتهى إلى الفتن وسفك الدماء .. يومئذ يكون الدين قد تحول إلى طائفية ذميمة تنذر بشر العواقب وأوخم النتائج ..

فى أوائل القرن الثامن الهجرى شهدت مصر أعواماً سوداء ذهبت بمشرات المعابد ، وأودت بمشرات النفوس ، وملأت القلوب حقداً والأرض فساداً . . فقد أساء بعض الموظفين من أهل الذمة معاملة المسلمين وأذاقوهم ألواناً من الذل والمهانة ، فقابلهم جهلة المسلمين بإحراق بعض الكنائس ، فرد عليهم بعض المتعصبين من الكهان والرهبان بإحراق بعض المساجد .. وكادت تتحول القاهرة إلى أتون مستعر لولا أن حزم السلطان أمره ، وعاقب مسببى الفتنة من الجانبين بما أطفأ نارها .. وتلك هى الطائفية السوداء . . إن إساءة الموظف المسيحى لمواطنيه المسلمين أمر لاتدفعه إليه مسيحيته ، وإنما تدفعه إليه طائفيته الجاهلة بسماحة المسيحية وأخلاقها .. وإن إحراق المسلم لبعض الكنائس أمر لا يدفعه إليه إسلامه ، وإنما يدفعه إليه جهله بالإسلام ومبادئه فى معاملة غير المسلمين .. وإن إحراق الكاهن المتعصب لبعض المساجد أمر لا يدفعه إليه المسيح ، وإنما يدفعه إليه جهله بروح المسيح وآدابه وأخلاقه .. وهكذا تنبعث الطائفية من الجهل ، ثم تنمو وتترعرع فى تربة الحقد والاستغلال ..

وإذا كان فى تاريخنا بعض المآسى الدينية ، فليس مردها إلا إلى الطائفية المنبعثة من الجهل ، وإذا كان فى تاريخنا بعض الحروب الدينية ، فليس مردها إلا إلى الطائفية المستثمرة من العدو .. وهل ننسى حوادث الستين ، وكيف كانت الدول الاستعمارية الكبرى هى التى تؤجج نيرانها ، كل دولة تؤيد طائفة .. حتى دمرت الطوائف بيوتها بأيديها ، وشوهت جمال أرضها بجهل عامتها واستغلال زعمائها . .

وإن من الحق أن نجهر بأننا لا نزال نعيش فى أجواء الطائفية البغيضة فى كثير من الأحيان . . بل إن فى بعض البلاد النائية من أرض الوطن العربى موجة من الطائفية البغيضة التى ترمى إلى استعباد طائفة لطائفة ، وطرد طائفة لطائفة من جميع دواوين الدولة وأراضيها .. وفى بعض البلاد النائية من الوطن الإسلامى تتحكم الأكثرية فى الأقلية تحكما لابد أن ينتهى إلى الإبادة أو الردة أو التشرد . . فما علة هذا ؟ وما سببه ؟ ومن الذى يستفيد منه ؟ وما طريق القضاء عليه ؟

أما إنه مامن شك فى أن العلة هى الجهل بالدين ، وأن السبب ماتوارثناه من خلق اجتماعى ذميم ، وأن الذى يستفيد منه هم أعداء الأمة من المستعمرين والطغاة والظالمين ، وأن العلاج الوحيد أن يذكِّر الناس جميعاً بالمبادئ الإنسانية العالية فى كل دين . .

إن كثيرين يظنون أن علاج هذه الطائفية المدمرة هى دعوة الناس إلى ترك أديانهم . . وليس أبعد فى الوهم والخطأ والضلال من هذا الظن . . فما كانت الأديان يوماً وسيلة حرب ولا أداة خراب ولا باعثة شقاء وفناء . . وهاهى تعاليم الأديان فى كتبها المقدسة : أين يجد الناس فيها مايدعو المؤمنين بها إلى أن يحتقروا مخالفيهم ويعتدوا عليهم ويسلبوهم أموالهم وأعراضهم وهناءتهم ؟ . . بل متى ابتليت أمتنا بهذه الطائفية الذميمة ؟ أفى عصور الخير والمجد ؟ أم فى عصور الضعف والانحطاط ؟ أفى عهود الدين الأولى ؟ أم فى أيامه الأخيرة ؟ . . أيوم كان الناس مستمسكين بتعاليمه أم يوم انحرفوا عنه ولم يتقيدوا بأوامره وزواجره ؟ . . إن الجواب عن هذا لا يختلف فيه اثنان ممن يقرأ التاريخ . . فالمؤمنون الأولون الصادقون كانوا أوسع الناس صدورا ، وأحسنهم أخلاقا ، وأكرمهم معاملة ، وأكثرهم وفاء . . فهل ذلك إلا لأن دينهم يأمرهم به ولو أمرهم بغيره لفعلوا ، وألا تكون الطائفية الحاقدة وليدة الجهل بالدين لا العمل به ولا الوقوف عند حدوده ؟

ثم ألا تكون الدعوة إلى ترك الدين كعلاج للطائفية ، غفلة قاتلة لا تقع فيها أمة واعية ؟ . .

إن الفرق بين الدين والطائفية هو فرق ما بين العلم والجهل ، والحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والعصيان .

الدين إخاء وتعارف ولقاء .. والطائفية عداء وتقاطع وجفاء .

الدين حب ورحمة وسلام .. والطائفية كره وقسوة وخصام .

الدين وفاء وحسن خلق وطيب نفس وسماحة يد . . والطائفية غدر وسوء خلق وخبث نفس وقذارة يد . .

الدين شرعة الله ورسالته ، والطائفية شرعة الشياطين ووسوستهم .

الدين هداية الرسل إلى الله وطريق الناس إلى الجنة .. والطائفية قيادة الأشرار إلى الدمار ، والطريق المستقيم إلى النار . .

هذا هو الفرق بين الدين وبين الطائفية ، وهو فرق عميت أنباؤه على كثير من الزعماء ورجال الأحزاب ودعاة الإصلاح ، فحاربوا الدين وهم يظنون أنهم يحاربون الطائفية ، وكرهوا دعوة الدين وهم يظنون أنها دعوة إلى الطائفية . . وما دروا أنهم بذلك يجردون الأمة من أقوى أسلحتها للقضاء على الطائفية وما تجر وراءها من بلاء وشقاء . .

ولئن جاز لأحد أن يبرر الدعوة إلى ترك الدين لأنه أسيء استعماله ، فقد جاز لكل إنسان أن يدعو إلى ترك الطب لأنه أسيء استعماله ، وإلى ترك الأدب لأنه وضع فى غير موضعه ، وإلى إغلاق معاهد العلم لأنها انحرفت بكثير من طلابها عن طريق الهدى والرشاد . .

إن الانحراف بالحق لا يبرر المطالبة بإلغائه ، وما من حق فى الدنيا إلا وقد شابه من الأغراض ما شوّه جماله . . أفترى نظامنا النيابى وما أصابه من تعثر فى خطواته يبرر لأحد ممن يؤمن بحرية الفكر وحق الشعب ، وكرامة الفرد بأن يطالب بإلغائه ليقوم مقامه نظام استبدادى يجعل الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ، إن على الذين يحاربون دعوة الدين على وجهه الصحيح لئلا تؤدى إلى عصبية طائفية شوهاء أن يقدروا ما تتعرض له الأمة من الأخطار المادية والخلقية والفكرية حين تجرّد من دينها ، فلا يحجز بعضها عن بعض وازع ولا رقيب ؟ . . وكم تطفىء فى قلوب الناس من جذوة مشتعلة تبعث على التضحية والفداء حين تحتاج الأمة إلى البذل والفداء . . إن الدين يعوض الشهيد عن حياته الدنيا جنة عرضها السماوات والأرض ، فبماذا تعوض الدعوة إلى ترك الدين الشهيد عن أولاده وحياته ولذته ونعمته ؟ . . إننى لا أتصور انتحارا جماعيا أشد فى قبحه وشناعته من ترك الأمة لدينها وإعراضها عن الله . . ولست أتصور خلقا اجتماعيا كريما يمكن أن تتخلق به الأمة بعد أن تطرح دينها وراءها ظهريا ، فإلى أية هاوية ننحدر إليها بجهلنا التفرقة بين الدين والطائفية ؟ !

الانحراف عن العقيدة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٥)

وأخيراً الأزهر

من نافلة القول أن نذكر أن للأزهر خارج مصر سُمعة لا يتطاول إلى قريب منها أى معهد علمى فى مصر أو غير مصر ؛ فهو يملأ سمع الزمان وبصره ، وهو قِبلة العالم الإسلامى كله ، ومنه يلتمس المسلمون جميعا النور والهدى ويطلبون العلم والعرفان .

وهو إلى هذا كله ، يستقبل الآلاف من التلاميذ من أدنى العالم الإسلامى إلى أقصاه ؛ يفدون إليه عطاشا لينهلوا من موارده الحافلة ، وليرجعوا إلى بلادهم ، وقد أُترِعت قلوبهم وعقولهم من هَدْى الإسلام وثقافته فيكونوا هناك معلمين ومرشدين هادين .

وهذا المعهد الجليل كان كذلك قرابة ألف عام لأن رجاله وأبناءه كانوا يعرفون رسالته ، وكانوا يعملون جاهدين على النهوض بها ؛ هذه الرسالة التى تتلخص فى حفظ شريعة الله وسنة رسوله ولغة القرآن ، وفى توجيه الأمة سواء السبيل بالقيام على أخلاقها وتقاليدها الطيبة .

ومن ثم ، كان علماؤه ملتقى أبصار الأمة الإسلامية ، ومفزع الجميع فى الشدائد والملمات . ذلك بأنهم كانوا يعتقدون تماما قوله تعالى : « كنتم خير أمة أُخرِجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ؛ كما كانوا يعملون على أن يكونوا كما قال الله جَلَّ ذكره فى آية أخرى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وقد اقتضاهم هذا وذاك ، أن يثقوا أولاً بأنفسهم وبما اضطلعوا به من أشرف رسالة ، كما جعل الأمة تلتف حولهم وتثق بهم ، فلا تقدّم على أمرهم أمراً ولا يخالفون لهم رأيا ، لا فرق فى هذا بين حاكم ومحكوم ، والتاريخ شاهد صدق على ما نقول .

صمد الأزهر إذاً على الزمن قرابة ألف عام ، وهو ملجأ الأمة وكعبتها ومنارتها كما قلنا ، لأنه كان يؤمن برسالته ويعمل جاهدا على القيام بها حقا ، ولأن رجاله كانوا يحملون من هذه الرسالة « عقيدة » قوية خالطت قلوبهم فهم يعيشون لها وبها .

ولـكن ماذا حدث بعد هذا ؟ ثم ماذا صار إليه الأزهر وهو المعهد الذى لا يغنى معهد آخر غناءه ؟ كان أن انحرف الأزهريون عن رسالة معهدهم الجليل وجهلوها أو تجاهلوها ، وأن ضعفت عقيدتهم فى أنهم أصحاب رسالة ، وأنهم أهل الإمامة والتوجيه فليس يليق بهم أن يكونوا أتباعا لغيرهم .

وكانت النتيجة الطبيعية لهـذا الوضع الذى رضيناه لأنفسنا ، أن أخذت الأمة وأولو الأمر فيها فى خلق معاهد أخرى تقوم بما عجز الأزهر عنه ؛ فـكان أن أنشئت « دار العلوم » عام ١٨٧٢ م ، ثم مدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ ، ثم تلا ذلك إنشاء الجامعة المصرية . ومن ثم تزحزح الأزهر عن الصدارة ، وأخذ فى التّدّلّى حتى صار على ما نرى الآن !

إن من الحق أن نقرر أن معنى إنشاء هـذه المعاهد أن الأزهر بآلاف طلابه صار — على الأقل فى رأى ولاة الأمور حينذاك — غير قادر على سد الحاجات المختلفة التى يتطلبها العصر ، وأن الأمة اعتزمت أمراً فى تولية وجهها شطر معاهد أخرى ، معاهد لا تهمل القديم ولـكنها تأخذ من الحديث بنصيب وافر .

ومن هنا نفهم سبب ثورة الأزهريين عام ١٩٠٨ ، أى عام إنشاء الجامعة المصرية ، إذ رأوا فى هذا الحدث إبعاداً لهم عن الصف الأول فى الحياة العلمية والحياة العامة التى تتبعها . وكان من هـذا أن جدّوا فى طلب الإصلاح العلمى ، وظلوا ملحين فى إجابة ما سموه « مطالب الأزهريين » ، وكان علاج هـذا الحال صدور القانون رقم ١٠ سنة ١٩١١ الذى يعتبر بحق أخطر قانون صـدر لإصلاح الأزهر فى تلـكم الأيام ، هذا القانون الذى درست وتخرجت من الأزهر على أساسه .

على أنه لا ينبغى أن يفهم أحد مطلقا أنه لم يبق للأزهر ، بعد أن أنشئت هذه المعاهد والجامعات الحالية بمختلف كلياتها ، رسالة عليه أن يؤديها ؛ إن له مع هذا رسالة لا يستطيع غيره من المعاهد والجامعات أداءها ، وإن عليه أن يفهمها ويقدرها قدرها ، وإن على أبنائه أن ينهضوا بها .

وهذه الرسالة الجليلة التى لا يستطيع أن ينهض بها على الوجه الأكمل غير الأزهر ، ذات جوانب مختلفة ونواح عديدة ، ونكتفى أن نشير من هذه الجوانب والنواحى إلى ما يأتى :

١ — إعداد جيل من المسلمين يتميز بفهم الإسلام وتعاليمه الحقة قبل أن يختلط بها ما اختلط من ضلالات نسجها الزمن طوال العصور التى مرت بالإسلام ، كما يتميز بعدم الاحتفال بالدنيا وزينتها بقدر ما يحتفل بقول الحق يصدع به وإن غضب لذلك الرؤساء والكبار ؛ حتى يقول الواحد من هذا الجيل كما قال أسلاف لهم من قبل : إن الذى يمد رجله لا يمد يده !

ومتى تم إعداد هذا الجيل ، يكون على الأزهر أن يستعين به فى الدعاية للوطن الأكبر والتبشير بالإسلام ونشره فى كافة أرجاء الأرض . فإن النفر من هؤلاء يكون سفراء لمصر وللإسلام خيرا من سفراء السياسة الرسميين ؛ إذ ينفذون بأقوالهم وأعمالهم إلى القلوب ، ويصلون إلى أوساط وبيئات لا يستطيع السفراء الرسميون الوصول إليها ، ومن ثم يكون لهم من التأثير الحاسم ما لا يكون مثله لهؤلاء الرسميين .

٢ — إن الأزهر فى هذه الأيام يقف والزمن يسير ، والحياة لا تعرف الوقوف ولا الجمود ؛ فعليه إذاً أن يحيا الحياة التى يحياها الناس ، وأن يعرف مشاكل هذه الحياة ويعمل لإيجاد حلول لها تتفق مع شريعة الله وروح الإسلام ، وبذلك يستطيع أن يبدع فى ميادين الاجتماع والاقتصاد والقوانين المدنية والتجارية والإدارية والدستورية.

أريد أن أقول إن للإسلام فكرة كاملة عن الحياة الطيبة التى تليق بأمة ناهضة لها ماضيها المجيد ومستقبلها الذى ينتظرها ، فعلى الأزهر أن يبرز للناس هذه « الفكرة » فى كل نواحى الحياة ، وبهذا لا نكون تبعا لهذا المعسكر أو ذاك من المعسكرات التى تتقاسم العالم فيما بينها .

٣ — إننا ننادى فى كل مناسبة بأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان

ومكان ، وهذه قضية صادقة حقا ، ولكن علينا أن نبين للناس هذه الصلاحية .
ولن يكون لنا هذا ، فى النواحى الدنية والاقتصادية ونحوها ، إلا إذا عرفنا الفقه الإسلامى الأصيل : أى فقه الصحابة والتابعين ، وحينئذ سنجد أن فى هذا الفقه متى عرفناه وعرفنا طريق الإفادة منه حلولا للمشاكل التى نعانيها وتقابلنا هنا وهناك ، هذه المشاكل التى لجأ رجال القانون — فى سبيل حلولها — إلى القوانين الأجنبية حين رأونا معشر الأزهريين جامدين ومتخلفين عن موكب الحياة الحالية المتطورة دائما .

وتفصيلا لذلك الإجمال ، أريد أن أقول : إن علينا معشر الأزهريين أن نبين للناس حكم الله ودينه الصحيح الذى ارتضاه للعالم كافة فى سياسة المال وتوزيع الثروات ومنابعها وأصولها الأولى ، وحكمه فى علاقة العامل بصاحب العمل وعلاقة الفرد بالدولة ، وحكمه فيما نرى من معاملات مالية واقتصادية تجرى فى البنوك والأسواق العامة الرسمية وغير الرسمية ، إلى غير هذه النواحى المختلفة والمجالات العديدة التى تزخر بها الحياة التى نحياها .

٤ — ولن يكون لنا هذا أو شىء منه إلاّ إذا أعيد تنظيم الأزهر وكلياته ، وبخاصة كلية الشريعة ، هذه الكلية التى لا تستحق الحياة إلا إذا أخذت عدتها لإعادة الحياة للتشريع الإسلامى وتنميته ليصلح لهذا العصر بعد أن طال به الجمود والوقوف .
وهذه مهمة جليلة وشاقة بيقين ، ولكن يجب القيام بها علينا معشر رجال الأزهر ، ومن أولى بهذا من كلية الشريعة ؟!

هذه بعض جوانب رسالة الأزهر كما أفهمها ، والأزهر بحالته الحاضرة قد لا يستطيع أن ينهض بها كاملة ، ولكن عليه أن يفهمها أولاً ويثق بنفسه وأبنائه ثانياً ، والأمة لن تضن عليه بالعون فى سبيل القيام بها .

* * *

هذا ، والنتيجة العامة لهذه الفصول ، وهى كلها تتصل بالعقيدة وخطر الانحراف عنها ، هى وجوب أن نعود للدين من جديد ، وأن نثق بهذا الدين وبقوميتنا وشريعتنا وتقاليدنا الطيبة ، وأن نثق أيضاً بأنفسنا وبأننا خير أمة أُخرِجَت للناس .
ومتى وصلنا إلى هذا ، كان ما بقى هيّنا ، وكان أمر بعث الإسلام وأمته ميسوراً ، والله ولى التوفيق ؟

غار ثور

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي بدمشق

قصدت فى الرابع والعشرين من ذى الحجة لعام ١٣٦٣ مع إخوان لى غار ثور الذى أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الخميس غرّة ربيع الأول وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه ليقيما فيه حتى تسكن قريش عن طلب محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما رأت رأيها الخاسر للتخلص منه ، وقد كان لهما ما أرادا .

وقفت بنا السيارة بعد عشرين دقيقة من خروجها من مكة المكرمة ، فإذا نحن تلقاء جبل أشمّ صليع وعر ذى صخور رواهص سوداء ودكناء ورقشاء ، فصعدنا ثنيّةً لم تطل ، أقيمت على جانبيها الصخور صوًى[1] ، سلكناها بيُسر ، ثم صرنا نتصبب عرقاً مع أن الشمس لم تكن قد كست سفح الجبل بما نسجت من غلائل النور والحرور .

قال أحد الرفاق حينئذ : كأنا نصعد قلعة حلب ، فأجابه الأستاذ الشيخ أحمد البيانونى : بل نصعد قلعة الهجرة ، ولقد أصاب ، فما الغار إلا قلعة اعتصم بها الحق حتى أتيح له أن ينطلق إلى مقاصده السامية فقد :

تفجّر من غار النبى شريعة	غدت بعدها ربّى بلادٌ وأعصر
فلله ما أسماكِ ديناً ومرشداً	وأغلاك دستوراً به الحق يزهر

بلغنا الغار بعد ساعة وعشرين دقيقة ، استرحنا خلالها قليلاً ، ومسّنا لغوب زاد إعجابنا بالرسول وصاحبه اللذين كانا يأخذان بالأسباب تحقيقاً للخطة الصادقة ، فأمّا هذا الغار .

وانظر بعض الأخذ بالأسباب كما جاءت بهذه المناسبة فى كتب السيرة :

قال ابن إسحق : (أمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمّع لهما ما يقول

(١) الصخور المتراصفة الثابتة .

الناس فيها نهاراً ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ، ثم يريحها عليهما [يأتيهما] إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[1]) .

وقال صاحب الطبقات الكبرى : (استأجر أبو بكر رجلاً من بنى الديل هادياً خرّيتاً[2] يقال له عبد الله بن أُرَيقط ، وهو على دين الكفر ، ولكنهما أمناه ، فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة ، فأخذ بهم ابن أريقط يرتجز ، فما شعرت قريش أين وجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]) .

هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضى الله عنه يأخذان بالأسباب فيضربان للناس الأمثال فى الحيطة والحذر فى مواطنهما ، وكثير من المسلمين غافلون اليوم : يفهمون التواكل توكلاً ، ويحسبون الغفلة من سلامة الصدر والتسليم للقضاء !

وعجيب إحياء الأمكنة التاريخية ذكرياتها فى نفوس زائريها ، فقد تصبح تلك النفوس مواطن تزدحم فيها حوادث التاريخ ازدحاماً ، ويكاد ذو الحس المرهف يسمع كلاما . وقد وصلنا إلى الغار فرحين ، فإذا الآمال تتمدد ، والقوى تتجدد ، فلا عناء ، ولا وعثاء ، وما مسّنا من لغوب . وصلنا إلى الغار الذى قلت فيه :

حُيّيت يا غار يا مأوى الرسول لقد حفظت ديناً أنار الدهر والحقبا
وقمت برهان صبر وانتظار هدى تثنى على المصطفى الهادى ومَن صحبا
فأنت أجمل فى عينى وفى خلدى من روضة سكرت أغصانها طربا
وسبّح الطير فى أفيائها غرِداً ورنّحت نفحات الزهر مكتئبا
وأين أين رياض الأرض ناضرةً من غار صبر رسولَ الله قد وهبا !

وصلنا إلى الغار : الشيخ أحمد البيانونى ، والشيخ الطبيب عمر خياطه ، والشيخ عبد الرءوف أبو طوف ، وكاتب هذا المقال ، وآخر لم يحضرنى اسمه الآن ، ودخلناه ،

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٨ .
(٢) ماهراً خبيراً بالطرق يهتدى لها .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢١٤ .

وكأنا لقينا بعد الليل النهار ، بل كأنا طوينا القرون القهقرى ، فإذا نحن ممن نعموا برؤية الرسول وأصحابه وجهاده الأول ، واكتحلت قلوبهم لا عيونهم فقط بطلعة الرسول الهادى البشير والقمر المنير . فلله كم يسدى الخيال الجوال من كريم الصنيع لذويه حين يمدهم بما يؤملون ، ويصلهم بمن يرجون ، ويهون عليهم بعض مرارة الحاضر الأليم بلقيا الماضى العظيم .

كان ذكر الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والثناء والصلاة عليه لا تفتر عنها ألسنتنا وقلوبنا ، وكأن كل شىء فى الغار الصامت القائم تلقاء فسحة صغيرة إزاء بابه ، وكأن كل صخرة بين الرِّضام العظام المحيطة به ، وكأن كل حصاة من حصباء الأرض أو ذرة من رمال الجبال ، وكل هبة من نسيم النداة ؛ تناجينا وتحدّثنا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهجرته وجرأته فرحة منشدة ، وكأن التاريخ مخلوق واع حىّ كان يرانا ولا يأذن أن نراه بل أن نسمع منه سماعاً فضلا يختلف عما كنا نقرأ بأنه كلام مخلوق حى من لسان وشفتين لا كلام قلم مثبت على ورق .

وبدت من قريب وعلى مدى بعيد جبال وهضاب ونجاد كثيرة يشرف الغار عليها ، وكأنها العالم ، وكأن الغار المشرف عليها قائدها وخطيبها ، وكأن تلك الصخور الاندفاعية الروائع رمزٌ للاندفاع العربى الإسلامى العالمى العظيم الذى شهده التاريخ بعد الهجرة ، ويريد أن يشهده اليوم بعد أن رقدت عزة المسلمين رقدتها .

* * *

جاء الغار زائران هنديان ، عانقناهما عناق المحبين على غير معرفة إلا معرفة الإخاء الإسلامى الذى آخى بين المؤمنين جميعاً ، وكان حضورهما معنى شاخصاً لهذا الإسلام الذى لفّ الأرض ، فكان لزاماً على كلّ أبيض وأسود أن يتخذه دون سواه دينا .

مكثنا فى الغار جميعاً قعوداً متزاحمين ، ولبثنا حيناً نتلو من القرآن الكريم ما نتلو ، ونردد من الصلاة على الرسول ما نردد ، فإذا انتصب أحدنا قائماً كان لزاماً عليه أن ينحنى قليلا لأن ارتفاع الغار دون طوله . وطول الغار نحو ثلاثة أمتار ، وعرضه يزيد على متر ، وله من الجهة المقابلة لمدخله طاقة لعلها التى عناها أبو بكر إن لم

يكن عنى مدخل الغار نفسه إذ قال : يا رسول الله : لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا ! وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حينئذ : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما ، فأنزل الله تعالى : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

* * *

تحدثت الآن عن زيارتنا غارثور ، وما الكلام على الوقفة الكبرى على عرفة ، حيث وقف عشرات الآلاف من المؤمنين الوافدين من أقطار العالم ، الواردون إلى محراب الإسلام ، المحتشدون لنداء الفريضة ، المحتفدون[1] إلى مطهر النفوس ومسمع الدعاء المجاب ، المعتزون بالأخوة الكبرى ، الفخورون بالعروة الإسلامية الوثقى ، الخاشعون لجلال اتفاق الأمة على المبدأ الصدق ، وروعة عمل الجماعة للأمر الإلهى الشامل ، الفرحون بتعانق القلوب المؤمنة وامتزاج الأرواح المطمئنة ، وائتلاف الأحاسيس بالحقيقة ، واشتراك الآمال المنتظر فوزها كرة أخرى .

لا لست بمتحدث الآن عن أولئك الذين وقفوا على عرفة تعرف فى وجوههم نضرة التقوى ، وتكاد تلمس حولهم نفحات الرحمة ، ويبش لخيرهم الوادى الجديب ، يتصافحون فتتماس القلوب ، ويتعارفون وكل طائفة من بلد عُنُق إلى طائفة من بلد آخر ، فكأن لقاءهم لقاء خلان وإخوان ، ويتساءلون عن أحوالهم فكأنهم من وطن لا أوطان ، ويتناصحون فيفيض الإخلاص ، وتتجلى المودة وتتداعى الرغبات العذاب ، وتتراءى الحياة التقية العزيزة الرشيدة بين ترديد (لبيك اللهم لبيك ...) ...

وما عسى أن أتحدث ، وأتحدث ، والذكريات الطيبة المباركة أعظم من أن يتسع لها مقال أو يجمعها مجال .

فما أعظم حكم الحج وأحكم آثاره بين من يقدروها قدرها ، فلا يحسبون الحج نزهة فى بستان ، وهم لا يعرفون نزهة الروح والوجدان ؟

(١) المسارعون .

من نماذج البطولة في الإسلام

للأستاذ محمد خلف الله

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

لم يخلُ عصر من عصور الإسلام ، ولا قطر من أقطاره ، من رجال نقشوا على صفحات الزمن أثراً من آثار البطولة . وأكثر ما تجد هؤلاء في ميادين الجهاد ، ورد العدوان ، وإزالة المظالم ، والجهر بالحق فى وجه سلطان جائر ، ومقاومة نوازع الهوى ، وبذل النفس والنفيس ذوداً عن الوطن ، أو دفاعاً عن العقيدة ، أو تثبيتاً لدعائم الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية .

وقد حَفَلت كتب الدراسات الإسلامية بذخائر لا تنفد من أدب البطولة ، فى نواح يُذكّرنا إياها ما نشهده اليوم من آيات العزة القومية ، ومواقف الرجولة والإباء ضد الطغاة والمتجبرين . وسأعرض هنا نموذجين اخترتهما من حياة الأندلس الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى :

أولهما قاض صدع بالحق ، فلم يرع فيه جانب خليفة أو سلطان .

وثانيهما عصامىٌّ وَلِى الحكم فعدل فى الرعية ، وكف جور حاشيته عن الناس .

أما القاضى فمنذر بن سعيد ، الذى ولى قضاء الجماعة بقرطبة ، أيام عبد الرحمن الناصر ؛ فأظهر العدل ، وقبض الجور ، ورفع الحق ، وخفض الباطل ؛ وكان مهيباً صليباً صارماً ، غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحد من خلق الله فى استخراج حق ورفع ظلم .

استمر فى القضاء إلى أن مات الناصر ، ثم ولى ابنه الحكم فأقره ، وفى خلافته استعفى مراراً فما أعفى . وتوفى بعد ذلك ، لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور ، ولا عُدَّت عليه فى حكومته زلة .

وكان غزير العلم ، كثير الأدب ، متكلما بالحق ، متبيناً بالصدق ، له كتب مؤلفة فى القرآن والسنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ؛ وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً .

فمن مواقفه الخالدة مع الخليفة الناصر ، أن الناصر كان كَلِفاً بعمارة الأرض ، وإقامة معالمها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان ؛ فأفضى به ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء ، وبذل جهده فى تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ؛ وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات . فأراد القاضى « منذر » أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة والحكمة والتذكير ، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . . . » إلى آخر الآيات . ثم بعد أن وفّى هذه النقطة انتقل إلى قوله تعالى : « أفمن أسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار . . » إلى آخر الآية . وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والدعاء إلى الزهد ، وأسهب فى ذلك كله ، وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ؛ حتى خشع الناس واعترفوا وبكوا ، وأعلنوا التضرعَ إلى الله تعالى ، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد عَلِم أنه المقصود به فبكى وندم على ما سلف له . إلا أنه وجد على منذر لغلَظ ما قرعه به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، واستشاط غضباً فأقسم ألا يصلى خلفه صلاة الجمعة . وقال له ابنه الحكم : فما الذى يمنعك من عزل « منذر » عن الصلاة بك ؟ فزجره أبوه وانتهره ، وقال له : أمثلُ منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه — لا أمَّ لك — يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ! هذا ما لا يكون ؛ وإنى لأستحيي من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر فى ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجنى فأقسمت ، ولوددتُ أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى ، بل يصلى بالناس حياتنا وحياتَه إن شاء الله تعالى ، فما أظننا نعتاض منه أبداً .

وطلبه الخليفة الناصر مرة للاستسقاء — حين انقطع المطر واشتد القحط — وتسابق الناس للمصلى . فقال القاضى للرسول — وكان من خواصّ الناس — : ليت شعرى ما الذى يصنعه الخليفة سيدُنا ؟ فقال له : ما رأينا قطُّ أخشعَ منه

فى يومنا هذا ، إنه منتبذ حائر ، منفرد بنفسه ، لابسٌ أخسَّ الثياب ، مفترشٌ التراب ، وقد رمّد به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه ، وهو يقول : هذه ناصيتى بيدك ، أتراك تعذّب بى الرعية وأنت أحكم الحاكمين ، لن يفوتك شىء منى ! قال الحاكى : فتهلل وجه القاضى منذر عندما سمع قوله ، وقال ! يا غلام : احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسقيا ؛ إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء . وكان كما قال . فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

ودخل « منذر » مرة على الخليفة ، وهو فى قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة ، واحتفل فيها احتفالا عظيما ، ظن ّأن ّ أحداً من الملوك لم يصل إليه ، فقام القاضى خطيباً ، والمجلس قد غصّ بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى :

« ولولا أن يكون الناسُ أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون ... » الآية وأتبعها بما يليق بذلك . فوجم الملك وأظهر الكآبة ، ولم يسعه إلا الاحتمالُ لمنذر بن سعيد لعظم قدره فى علمه ودينه .

وحضر معه يوماً فى الزهراء فقام أحدُ الشعراء فأنشد قصيدة ، منها :

سيشهد ما أبقيتَ أنك لم تكن مُضيعا وقد مكّنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتُّقَى وبالزهرة الزهراء للمُلْك والعليا

فاهتزّ الناصر وابتهج . وأطرق منذرُ بن سعيد ساعة ثم قال :

يا بانىَ الزهراء مستغرقا أوقاتَه فيها أما تُمهل !
لله ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتُها تذبل !

فقال الناصر : إذا هبّ عليها نسيمُ التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى . فقال منذر : اللهم اشهد أنى قد بثثتُ ما عندى ولم آلُ نصحا .

* * *

وأما النموذجُ الثانى فهو المنصور بن أبى عامر ، الحاكمُ العصامىّ ، الذى ولى مقاليد الحكم فى الأندلس بعد انقضاء عهد الناصر والمستنصر وضعف ذريتهما ، ودامت دولته ستًّا وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة ، واحدةً فى الشتاء

وأخرى فى الصيف ، ولم تُهزَم له فى واحدة منها راية . وقد حمى الثغور وأعزَّ شوكة الإسلام ضدّ أعدائه ، وهو القائل :

رميتُ بنفسى هولَ كلِّ عظيمة وخاطرتُ — والحرُّ الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جَنَان مُشَيّع وأسمرُ خطىٌّ وأبيض باتر

فمما يذكر فى معرض التدليل على حسن رعايته للناس وإنصافه لهم : أنه بنى قنطرة على نهر قرطبة الأعظم ، انتهت نفقاتُها إلى مائة وأربعين ألفَ دينار ، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدراً فى مناقبه الجليلة . وكانت هنالك قطعةُ أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدولٌ عنها ، فأمر المنصورُ أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم فساوموه بالقطعة ، وعرّفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها . فطلب فيها الشيخُ عشرةَ دنانيرَ ذهباً ، وكان ذلك أقصى أمنيته ، فاغتنم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته بقيمة أرضه ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحاً كما قال . فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، وصارت قصته خبراً سائراً . .

ومن مآثره التى تعد فى تاريخه زيادته فى بناء المسجد الجامع بقرطبة حتى يتسع للناس ؛ وأولُ ما عمله فى هذا تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن .

ويذكرون من علائم صلاحه أنه خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته ، ويدرس فيه ويتبرك به ، وأنه اعتنى بجمع ما عَلِق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه بالمناديل فى كل منزل من منازله ، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة ، عهد بتصييره فى حَنُوطه ، وكان يحملها حيث سار فى أكفانه ، توقعاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغَزْل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه فى طريق الجهاد فكان كذلك .

وكان عدله فى الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروبا به المثل : فمن ذلك أنه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه ، فنادى : يا ناصر الحق ! إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة — وكان له فضل محلٍّ عنده — ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت . فقال المنصور : اذكر مظلمتك يا هذا . فذكر الرجل معاملة كانت جاريةً بينهما فقطعها الوصيف من غير نصف . فقال المنصور : ما أعظم بليَّتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصقلبي وقد ذهل عقله فقال له : ادفع الدرقة إلى فلان ، وانزل صاغرا ، وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك . ففعل ومَثَلَ بين يديه . ثم قال لصاحب شرطته الخاصّ به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم ، وقدِّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ، ليُنَفِّذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره . ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكراً ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت ، اذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى ، فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك قصةٌ لأحد فتيانه مع تاجر مغربى : فإنهما تنازعا فى خصومة توجهتْ فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، وإليه أمرُ داره ، وحرَمه ، فدافع الحاكم ، وظن أنّ جاهه يمنعه من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى ، فوكل به المنصور فى الوقت من حمله إلى الحاكم فأنصفه منه ، وسخِط المنصور على فتاه ، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن هذا الوادى قصة « محمد » فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ؛ فإن المنصور احتاجه يوماً للفصد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسولَه إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوساً فى سجن القاضى ، لحيف ظهر منه على امرأته إذ ظن أن سبيله من خدمة السلطان تحميه من العقوبة . فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته ، أمر بإحضاره من السجن ، مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ، يردُّه إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وأراد الفاسد أن يشكو ما ناله ، فقطع عليه المنصور الكلام ؛ وقال له : يا محمد ! إنه القاضى ،

وهو فى عدله ، ولو أخذنى الحق ما أطقت الامتناع منه . عُد إلى محبسك ، واعترف بالحق فهو الذى يطلقك . فانـكسر الخادم ، وزالت عنه ريحُ العناية ، وبُلّغت قصته للقاضى فصالحه على زوجته ، وزاد القاضى شدة فى أحكامه .

وحدّث أحدهم واسمه « شملة » قال : قلتُ للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط سيدُنا فى السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهوأعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا شملة : الراعى لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد المظيم عين نائمة .

* * *

هذه جوانب يمبق منها أرجُ البطولة من حياة رجلين : يمثل أحدهما جراءة العقل وجلال الدين والعلم ، ويمثل ثانيهما شجاعة القائد ، وعدالة الراعى المسئول عن رعيته .

الاستقامة السياسية

هى التزام المشتغل بالسياسة جادة الصدق والنزاهة والخلق القويم فى حياته العامة وفى حياته الخاصة أيضاً ؛ لأن الاستقامة السياسية غالباً ما تـكون نتيجة للاستقامة الاجتماعية والشخصية ، وهى أساس السياسة الناجحة . وأقصد بالسياسة هنا السياسة الداخلية : أى علاقات الناس بعضهم ببعض فى الشئون العامة .

فلـكى تنهض البلاد وتتخلص من نقائصها يجب على الساسة والقائمين على الشئون العامة أن يتذرعوا بالاستقامة والنزاهة .

« عبد الرحمن الرافعى »

الحجَّ أيها المستطيعون!

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار

أستاذ التفسير بكلية الآداب السورية

قال الله تبارك وتعالى : « إنَّ أول بيت وُضع للناس للذى ببكةَ مباركا ، وهدى للعالمين . فيه آيات بيّناتٌ مَقام إبراهيم ، ومَن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنىٌّ عن العالمين » .

(من سورة آل عمران)

وقال سبحانه : « وإذ جعلنا البيت مَثَابةً للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود » .

(من سورة البقرة)

فلا عجب إذا لبَّى المسلمون هذا النداء ، واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ، ويبث روح المودة والوئام فيهم ، ويقيهم ضرر التقاطع ، وفشَل التنازع ، وقد افتتح تعالى الآية الأولى بذكر محاسن البيت وعظم شأنه ، فوصفه بأفضل الصفات ، منها أنه أسبق بيوت العالم إلى عبادة الله تعالى ، وأنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس فى بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ، ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، ووصفه بالمصدر نفسه ، حتى كأنه نفس الهدى ، وفى وصفه بهذه الصفات ما يبعث النفوس على حجه ، وإن شطت بالزائرين الديار ، وتناءت بهم الأقطار .

وقد جعل الله الكعبة قبلة للمسلمين ، واختار لها البلد الأمين ، وشرّفه بأن أقسم به فى كتابه فقال تعالى : « وهذا البلد الأمين » وجعله حرماً آمنا ، لا يُسفك فيه دم ، ولا يروّع فيه مسلم ، ولا ينفر له صيد ، ولا تلتقط لقطته إلا للتعريف ، وجعل الحج المبرور ماحياً للذنوب والخطايا ، موجباً لدخول الجنة بسلام ؛ فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أتى هذا البيت فلم

يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف فى غيره » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (رواه الجماعة إلا أبا داود) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد الحج فليتعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتعرض الحاجة » (رواه أحمد وابن ماجه) .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « قلت يا رسول الله : هل على النساء من جهاد ؟ قال نعم ، عليهن جهاد ولا قتال فيه : الحج والعمرة » (رواه أحمد وابن ماجه وإسناده صحيح) .

وعن سعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، ومجاهد ، وطاوس : « لو علمت رجلا غنيًا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ماصليت عليه » وكان بعضهم له جار موسر ، فمات ولم يحج فلم يصل عليه .

فالحمد لله الذى جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وجعل الحج من بين أركان الإسلام فريضة العمر وأكمل تعالى به الدين ، وأتم به النعمة ، وأنزل على نبيه صلوات الله عليه وسلامه : « اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وإنما نزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوَداع سنة عشر ، والنبى صلى الله عليه وسلم بعرفات على ناقته العضباء .

قال العلماء : إن الحج المبرور هو المقبول ، وهو الذى جاء على الوجه الأكمل باستيفاء الأعمال البدنية والقلبية ، ومن ذلك أن يكون المال الذى ينفقه حلالاً ، وأنشدوا :

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أصْلُهُ دَنَسٌ فما حَجَجْتَ ولكنَّ حجّت العيرُ
لا يَقبلُ اللهُ إلاّ كلَّ طيّبَةٍ ما كلُّ من حجَّ بيتَ اللهِ مبْرورُ

والحج المبرور الذى لا رفث فيه ولا فسوق — أى الذى ليس فيه كلام فاحش ولا خروج عن آداب الشريعة وحدودها — له فى النفس وإصلاحها أكبر الآثار ،

لما فيه من الانقطاع عن الأهل والوطن والأعمال الدنيوية ، والإقبال على الله تعالى ، وإحياء شعائر أعظم المرشدين ، والوقوف فى مواقف أفضل المرسلين ، والتذكر بتقلبهم فى تلك المعاهد المقدسة تعبداً لله تعالى وتقرباً إليه ، وخضوعاً خالصاً لجلاله ، لا حظ للنفس فيه ؛ فمن حج مثل هذا الحج المبرور ، واستغرق قلبه بمثل هذا الإحساس والشعور ، رُجِى أن يمحى ما كان علق بنفسه من آثار الذنوب الماضية ، وعند ذلك تنبعث النفس إلى حسن الطاعة ، والاستقامة على طريق الهداية ، فتعمد إلى أداء ما عليها من الحقوق لله والناس بقدر الاستطاعة ، فيصح أن يقال : إنها وُلدت ولادة جديدة ، وأن يقال : إن السيئات الماضية قد كُفِّرت وسُترت ، لأن الغفر والتكفير بمعنى تغطية الشيء ، وقد غُطِّيت تلك الظلمة الماضية وسترت بهذا النور الحاضر .

حِكم الحج :

حِكم الحج كثيرة ، وفى كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للتذكر ، وعبرة للمعتبر ، وقد شرف الله البيت الحرام بالإضافة إلى نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حوله حرماً لبيته — تفخيما لأمره ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، وفى الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين ، الحافين حول العرش ، الطائفين حوله ، وما القصد طواف الجسم فحسب ، بل طواف القلب بذكر الرب ، وفى السعى بين الصفا والمروة إظهار للخلوص فى الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، وفى الوقوف بعرفة وازدحام الخلق وارتفاع الأصوات ، باختلاف اللغات ، تذكر لاجتماع الأمم بين يدى الله تعالى يوم القيامة ، وفى رمى الجمرات طاعة للرحمن وانقياد لأمره ، وإرغام للشيطان وقصم لظهره ، وللرمى أذكار مخصوصة يقصد بها ما ذكرنا ، فتكون الحصيات مع هذه الأذكار كالسبحة فى إحصاء الأذكار المأثورة بالعدد المعين . وكانوا فى الصدر الأول إذا عدوا يعدون على نحو الحصا والنوى .

هذا قليل من كثير من مقاصد الحج وحكمه وفوائده .

الله أكبر !

ما أفضل الحج وشد الرحال إلى المسجد الحرام فى البلد الحرام ، موطن الرسول

ومهبط الوحى ومطلع النور ، وعاصمة الإسلام ومهوى أفئدة بنيه ، ومجتمع المسلمين كل عام من جميع أقطار الأرض ، على تعدد أجناسهم ، وتنوع لغاتهم وتنائى بلدانهم يجتمعون هناك وكلمة التوحيد تجمعهم ، وراية الإسلام تظللهم ، ولغة القرآن تربط بعضهم ببعض ، يجتمعون ليشهدوا منافع لهم روحيّة وجسدية ، دينية ودنيوية ، وليُحكموا بينهم أواصر المودة والرحمة « فضـلا من الله ونعمة ، والله ذو الفضل العظيم » .

الله أكبر !

ما أجمل رؤية الحجاج محرمين وملبين ، ولله درهم طائفين وعاكفين ، وراكمين وساجدين ، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله ، ومتعارفين متراحمين فى بيت الله ، « يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

الله أكبر !

ما اعتزموا شـدّ الرحال إلى مسجد الرسـول وأداء الصلاة فيه ، وزيارة صفوة العالم ، وسيد ولد آدم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وإنك لتجد من الأمن هنالك ما يذكرك بعهد الخلفاء الراشدين ، والملوك العادلين ، وحسبك أن زوّار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدون إليه الآن زرافات ووحدانا ، ولو ذهبت امرأة وحدها لـكانت آمنة على نفسها ومالها وعرضها .

وهذه الطائرات توصل قاصد البلاد المقدسة فى ساعات وهذه السيارات تطوى البيد طيا ، وتحمل وفود الحج من ساحل جدة إلى مكة كل يوم بكرة وعشيا ، وقد قرّبت البعيد ، وخففت المشقة لا سيما على العاجز والضعيف ، وصار الركب من جدة إلى مكة يصل فى أقل من ساعتين ، من بعد ما كان يطوى فى الطريق مرحلتين ، ويركب من جدة إلى المدينة فى بضع عشرة ساعة ، من بعد ما كان يسير فى الطريق بضعة عشر يوما ، ويبلغها جوًّا فى أقل من ساعتين ؛ فبشرى لحجيج بيت الله الحرام بشراهم اليوم !

من تاريخنا الحديث :

الشرق العربي

من حرب عالمية إلى أخرى

للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

(٣)

بلغت أزمة « الشرق العربي » ذروتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى باحتلال الفرنسيين « دمشق » في يوم ٢٨ يوليه عام ١٩٢٠ — وكانوا محتلين « بيروت » منذ أواخر الحرب — فصاروا مستولين على كل سورية ولبنان . وكان الإنجليز ، وقد احتلوا « بغداد » منذ حروبهم مع الترك ، قد أعلنوا عزمهم على البقاء في العراق ليحكموه حكماً مباشراً ، مما أدى إلى انفجار الثورة الشعبية ضدهم في صيف ذاك العام ١٩٢٠ ، وكانوا مستولين على « القدس » و « عمان » أيضاً منذ دخلتهما القوات الإنجليزية العربية عام ١٩١٧ ، وبعد مؤتمر « سان ريمو » في أبريل عام ١٩٢٠ قدروا استمرار احتلالها ، فصارت في حوزتهم فلسطين والأردن ، وذلك باسم الانتداب . أما مصر التي اشتعلت ثورتها منذ مارس عام ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال ، فإن الإنجليز لم يقبلوا أن يعترفوا بهذا الحق إلا مقيداً بحماية مصالحهم ، فأخفقت مفاوضات « سعد — ملنر » التي جرت في صيف ذاك العام ١٩٢٠ — وهي المفاوضات الأولى — وبقوا في احتلالهم « للقاهرة » و « السويس » والمدن الأخرى ، كما كانوا منذ قدموا بحجة حماية العرش ، وما قدموا إلا لحماية مصالحهم الإمبراطورية . وهكذا وجد الشرق العربي أن النتيجة النهائية لتلك الحرب التي بذل فيها الكثير من جهوده ودمائه ، مما كان له أثر ظاهر في انتصار الحلفاء ، والتي وعده زعماؤهم إبانها بأنهم إنما يحاربون من أجل تحريره ، دون أن يكون لهم غرض أو مطمع — وجد أن المآل أنه قُسِّم إلى منطقتين : (١) منطقة

احتلال فرنسى ، و (٢) منطقة احتلال إنجليزى : الأولى تتكون من سورية ولبنان بأسرها . والثانية تشمل الأقطار العربية : العراق ، الأردن ، فلسطين ، فمصر — عبر محور متصل ممتد من الشرق إلى الغرب. فإذا كانت الدولة العثمانية قد زالت فإن الشرق العربى لم ينل استقلاله وحريته ، بل وجد أنه عومل — بالرغم من مناصرته — كما تعامل دولة مغلوبة ، وصار إلى استعباد حقيقى فقد فيه كل شىء ، وكان عليه أن يظل خاضعاً لاستغلال وطغيان الأجانب : الإنجليز والفرنسيين .

حالة كانت لا بد أن تثير السخط والغضب ، وتوجد أعمق شعور بالاستيلاء فلا غرو — إذن — إن كان الشرق العربى فى تلك الفترة التى أعقبت الحرب — كما أسلفنا القول من قبل — يغلى كالرجل ، ثائراً حانقاً على سياسة المستعمرين وأطماعهم ، ونكثهم للعهود ونفاقهم ، وأن يهب ذائداً عن كيانه مدافعاً عن حقه : فثورة فى مصر ، وأخرى فى العراق ، واضطراب فى فلسطين ، وحرب بالشام ، وقلق فى الحجاز ! ولقد أثبتت تلك الثورات بعد قليل للمستعمرين أن تدبيراتهم لن يمكن تنفيذها بسهولة ، وأن الشرق العربى ليس كما تصوروا — وكما يقولون فى أمثلتهم — « لوزة » يسهل كسرها ! بل إنهم إذا كانوا يريدون أن يصروا على الاستمرار فى سياسة العدوان نحوه ، فلا بد أن يعدوا أنفسهم لتحمل خسائر جسيمة فى الأرواح والأموال . ولما كان الاستعمار لا يُقصد لذاته ، بل لما يأتى به من فوائد اقتصادية وسياسية ، وهذه لا تتحقق إلا فى جو الهدوء والسلام ، فإن المستعمرين كان لا بد أن يفكروا فى تغيير سياستهم تلك — عاجلا أو آجلا : فأما فرنسا فكانت قليلة الخبرة ، حديثة عهد بالشرق وروح الأمة العربية فى مواطنها الأصيلة ، وهى — كما عُرفت واشتهرت بذلك — مغرورة حمقاء ، تلجأ إلى أساليب الهمجية والبربرية ، وقد ظفرت بغنيمة طالما تمنتها دون أن تدفع من أجلها ثمناً ثقيلا ، فما كانت تستطيع إذن فى ذلك الوقت المبكر أن تقدر عواقب ما اقترفت يداها ، وكان لا بد أن تنقضى بضع سنوات حتى يحين الوقت الذى تُجبر فيه على مراجعة موقفها ، وتجد أن الأصلح لها أن تأخذ فى التراجع والانسحاب . فسيحل هذا الوقت حين يقوم الشام بثورته الكبرى ضد فرنسا فى عام ١٩٢٥ ؛ ولكنا نرجىء الحديث عنها إلى ما بعد قليل .

وأما إنجلترا فلأنها كانت أكثر حنكة لطول اتصالها بالشرق وهى أمة عملية تسودها العقلية التجارية ، وتعترف بالواقع ، وكان حدوث الثورات العنيفة فى منطقتها فكلفتها أموالا وضحايا ، بينما كان الرأى العام فيها يطالب الحكومة بوجوب الاقتصاد فى النفقات وتسريح الجنود بعد ما كان فى أيام الحرب ، وربما كانت أحست أيضاً فى ذلك الوقت بشىء من وخز الضمير إزاء الأسرة التى قدمت لها أجل الخدمات ، وهى أسرة الشريف « حسين » ، فقد جازتها جزاء سنمار ! وكان الأمير « فيصل » فى ذلك الوقت بعد أن طردته فرنسا مقيما فى إيطاليا يوالى إرسال الكتب إلى الوزارة الإنجليزية معاتباً ، مستنجداً . والأمير عبد الله منذ منعته إنجلترا نفسها من الذهاب إلى العراق حيث كانت تنتظره فرصة كبيرة . وكان الحسين فى الحجاز يحرق الأُرَّم وهو يفكر فى كنه الشرف البريطانى الذى وضع كل ثقته فيه ! وقد ذهب أمله أدراج الرياح فى إنشاء دولة عربية كبرى متحدة يكون هو ملكا عليها ، بل كان هو نفسه غير آمن فى مركزه وهو يرى القوة السعودية تنمو على حدوده وقد عاهدتها إنجلترا — ربما كانت إنجلترا قد أحست أخيراً بشىء من وخز الضمير ففكرت فى أن تسترضى تلك الأسرة ، وتنتفع فى الوقت نفسه بما لها من نفوذ أو تأثير روحى أو من قوة مادية فى تثبيت مركزها فى الشرق العربى ، وفى إخماد أو تفادى الثورات ، وفى سياسة السكان بحيث يشعرون بالرضا ويُدخل فى روعهم أنهم يحكمون أنفسهم ، فى الوقت الذى تُخدم فيه مصالح الإمبراطورية وتحكم بريطانيا بأيد عربية ومن وراء ستار — لكل تلك العوامل إذن مجتمعة وجدت إنجلترا أنه يلزمها أن تجرى تعديلا فى سياستها ، وهو تعديل يتناول الأساليب دون الهدف ، ويتصل بالشكل والمظهر دون أن يغير الحقيقة .

هذه هى الأسباب التى دعت إلى عقد « مؤتمر القاهرة » . وقد بدأ انعقاده فى يوم ٩ مارس عام ١٩٢١ . ورأت الوزارة الإنجليزية ضرورة حضور وزير المستعمرات نفسه « مستر تشرشل » ليرأسه ويشرف على إصدار وتنفيذ قراراته . وحضر معه الضابط « لورنس » الذى كان مستشار وزارته للشئون العربية . وقد دعى وفد من العراق ، مؤلف من وزراء عراقيين والعسكريين الإنجليز ، فحضر

برئاسة « سير برسى كوكس » — الذى كان المندوب السامى البريطانى — وكان المندوب قد ألف وزارة عقب الثورة على رأسها السيد عبد الرحمن الكيلانى نقيب الأشراف ، وهى أول وزارة عراقية . فحضر الوفد ، ثم تقرر فى ذلك المؤتمر إنشاء نظام جديد بالعراق : وذلك بأن تقام حكومة وطنية تكون ملكية دستورية ، ويُتفق على مبايعة وتتويج الأمير « فيصل » ملكا على العراق — وكان فيصل قد دعى من إيطاليا فى أواخر العام السابق إلى لندن ، للتشاور والاتفاق على تلك الخطة .

وذهب وزير المستعمرات أيضا مع لورنس إلى القدس ، واجتمع بالأمير عبد الله — وكان قد حضر فى نوفمبر من عام ١٩٢٠ إلى مكان بشرق الأردن ليجمع حوله زعماء القبائل ويأخذ — كما أشيع — بثأر أخيه من الفرنسيين الذين احتلوا دمشق . وهذه المنطقة ذات طبيعة عربية بدوية ، ونزعتها شديدة إلى الاستقلال ، كما أنه كثرت فيها الاضطرابات منذ إسقاط حكومة فيصل — وهى كانت جزءا من دولته العربية التى كان مركزها دمشق كما أنها — أى شرق الأردن — كانت دائما جزءا من ولاية دمشق أو الشام طوال الحكم العثمانى إلى بداية الحرب ، ثم جلا عنها الجيش العربى وبقى فيها الإنجليز . لذلك ، ولأن إنجلترا كانت تريد أن تقيم معقلا يحمى فلسطين والمشروع الصهيونى فيها من أخطار الصحراء ، مثل تلك القوة السعودية الناشئة على الحدود ، وتحميها أيضا من فرنسا فى الشمال ، ولتكون تلك المنطقة أيضا قنطرة تصل بين فلسطين والعراق وهى صاحبة النفوذ فى كليهما — لكل تلك الأسباب ، ولوثوق إنجلترا بصداقة الأمير عبد الله والأسرة وإخلاصه ، قررت إنجلترا إقامة حكومة فى شرق الأردن ، يكون لها شىء من الاستقلال الداخلى فى حدود ، يرأسها الأمير عبد الله . وقد قام « تشرتشل » بالاتفاق معه على ذلك وتنفيذ ما اتفق عليه .

شهد الشرق العربى إذن فى خلال عام ١٩٢١ هاتين الحكومتين الجديدتين تقيمهما بريطانيا ، خاضعتين لها وتحت إشرافها . وقد تسلم الأمير عبدالله عمله على الفور ، وألفت أول حكومة لشرق الأردن فى أوائل أبريل عام ١٩٢١ . وكان الوضع أن الأمير تابع للمندوب السامى فى فلسطين ، وكان فى ذلك الوقت

« السر هربرت صموئيل » اليهودى ، وينوب عنه معتمد إنجليزى مقيم فى الإمارة ، وهو الحاكم الحقيقى ، وكان أول معتمد « مستر أبرامسون » وشكلت فرقة نظامية رأسها « الكبتن بيك » ، ثم خلفه « جلوب بك » ولا يزال هو القائد الحالى . وقد سافر الأمير مرارا إلى لندن ليفاوض حكومتها فى إعطائه سلطات أوسع ، فعقدت معه معاهدة فى سنة ١٩٢٨ اعترفت له فيها بلفظ الاستقلال ، ولكن بقى وضع ولاية شرق الأردن كأنها مستعمرة أو محمية بريطانية . وأدت لإنجلترا خدمات جليلة : فصدت قوات السعوديين ، وضمت « العقبة » حين غزا ابن سعود الحجاز لتكون تحت النفوذ البريطانى ، ومنعت القبائل من مساعدة الثوار الوطنيين فى سورية ضد فرنسا عام ١٩٢٥ ، وشاركت فى إخماد ثورة « رشيد عالى الكيلانى » التى قام بها ضد الانجليز فى عام ١٩٤١ .

وأما الأمير فيصل فقدم من لندن يوم ٣١ مارس ١٩٢١ ووصل إلى العراق يوم ٢٣ يونيه ، فاستقبله العراقيون بحفاوة ونادى به مجلس الوزراء ملكا . ثم تمت بيعته وتتويجه فى بغداد فى يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١ . وانتقل العراق بذلك من الحكم الإنجليزى المباشر إلى حكم وطنى مرتبط بالإنجليز وجاعل القاعدة الأولى فى سياسة التعاون معهم والإخلاص لهم ومحاولة التوفيق بين مصلحتى العراق وبريطانيا : أى التوفيق بين الاستقلال والاستعمار ، بين الحرية والتقييد ، بين كرامة العروبة وعز الإسلام والتبعية لبريطانيا والذل لها . وقد عقد الملك فيصل معاهدة مع بريطانيا فى عام ١٩٣٠ قيد بها العراق ، وقد حددت فيها العلاقات بين البلدين وجعلت لازمة لمدة خمسة وعشرين عاما ، فهى القاعدة التى سار عليها حكم العراق منذ ذلك الوقت . وخلاصة أهدافها الاعتراف القانونى باستقلال العراق ولكن مع بقاء الحاميات البريطانية والقواعد والمطارات الحربية ، والاحتفاظ بامتيازات الزيت من الموصل ، ومع إلزام العراق أن تكون سياسته الخارجية وعلاقاته الدولية متفقة مع مصالح بريطانيا . على أن العراق ظفر بعهد من الاستقرار ، وتم فيه تنظيم الحكومة ، وأخذ الوزراء الوطنيون يعملون بهمة على تقدمه فى نواحى الإنشاء المختلفة . غير أن السياسة الاستعمارية لا بد أن تتحالف مع الإقطاع والرجعية وتخشى من ظهور إرادة الأمة ،

فلا مناص إذن أن يظل تقدم العراق محدوداً فى دائرة لا يتعداها ، ويجب أن لا يكون الإصلاح من الأساس بل يظل قاصراً على الوضع الراهن وفى الجزئيات والأشكال .

وأرادت إنجلترا ترضية « الحسين » أيضاً رأس الأسرة ولكن بثمن . فتوجه « لورنس » إلى جدة عقب تنفيذ قرارات « مؤتمر القاهرة » فى عام ١٩٢١ وعرض على ملك الحجاز مشروع معاهدة تدور على التحالف بينه وبين بريطانيا ولكنها تتضمن نصوصا تجمله يعترف بالأوضاع الراهنة فى البلاد العربية : أى بانتداب أو احتلال إنجلترا وفرنسا لها فرفض الحسين قبول المعاهدة بالرغم من إلحاح أفراد أسرته عليه بالموافقة . كما عاود الإنجليز جهودهم فى سنة ١٩٢٣ لنفس الغرض ولكنهم فى ذلك الوقت طلبوا من الحسين أن يعترف بوعد بلفور وآمال الصهيونية فكان الجواب الرفض القاطع . وإذ فجع الحسين فى شرف الحكومة البريطانية اتجه إلى الأمة الإنجليزية ، فأصدر نداء نشر فى لندن يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٢٣ — وهو آخر جهد له مهم — ذكَّر فيه الشعب بما اشتهر عنه من الشرف وقال فيه : « فلهذه الأسباب ألفت نظر الأمة البريطانية إلى ما حل بحلفائها العرب الذين لا يزالون يعدون أنفسهم حلفاءها .. فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة ، وأخذ العالم الإسلامى خاصة والسواد الأعظم من قومى يرميانني بتهمة أنى بعت بلدانهم لبريطانيا العظمى وحلفائها الخ .. » ولكن لم يكن هناك جواب لهذا النداء ففجع أيضاً فى شرف الأمة البريطانية . ودعاه ابنه الأمير عبد الله لزيارة شرق الأردن فذهب إليها فى أوائل عام ١٩٢٤ وقدم إليه تعزية أنه نادى به خليفة على الإسلام والمسلمين عقب إلغاء الخلافة فى تركيا فى مارس عام ١٩٢٤ ، ولكنها كانت الومضة الأخيرة قبيل انطفاء السراج !

ذلك أنه كان من أكبر التطورات التى حدثت فى العالم العربى فى الفترة التى تخللت بين الحربين العالميتين ظهور قوة « الدولة السعودية » الجديدة التى أسسها فى أول القرن الأمير « عبد العزيز آل سعود » ، واشتبكا كلاهما فى نزاع مع « الحسين » أدى إلى استيلائها على « الحجاز » . وكانت أول موقعة جدية فى « تربة » شرق مكة فى مايو عام ١٩١٩ حيث هزمت القوات السعودية الأمير عبد الله وجيشه هزيمة

تامة . ثم استطاع ابن سعود أن يمحو دولة « آل الرشيد » التي كانت تنافسه في شمال نجد عام ١٩٢١ ، فأصبح الجو مهيأ لنضال مباشر بينه وبين ملك الحجاز . ولم تكن سياسة « الحسين » الداخلية مرضية عند أهل الحجاز ولا المسلمين الذين يفدون إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فقد كانت حكومة فردية شخصية وكان يفرض من الرسوم ما يشاء ، ولا تقوم حكومته بأي إصلاح ، كما أنه كان يتبع إزاء آل سعود سياسة استفزازية تقوم على التحدي . ولما فشلت جهود التوفيق بدأت قوات نجد هجومها ، سستولت على « الطائف » في الأسبوع الأخير من أغسطس عام ١٩٢٤ ، ثم دخلت « مكة » في يوم ١٣ أكتوبر من نفس العام . وأجبر الحسين على التنازل لابنه علي فذهب يقيم في « العقبة » ؛ ولكن الإنجليز في يونيه عام ١٩٢٥ أرغموه على الرحيل إلى « قبرص » ليفصلوا العقبة من الحجاز . ومما يذكر أنه قال لبعض أخصائه عند سفره : « إنه يعترف بأنه كان مخطئاً وأنه لم يكن يعرف أخلاق الأوربيين وما ينطوون عليه » ! وقد بقي في تلك الجزيرة شبه أسير حتى قبيل وفاته . وبعد أن ظل « الملك علي » يواصل المقاومة من « جدة » عاماً آخر اضطر إلى التسليم نهائياً في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ . وفي ٨ يناير سنة ١٩٢٦ نودي بالسلطان عبد العزيز آل سعود ملكاً على البلاد الحجازية . وبذلك انتهى حكم دولة الأشراف من مكة والحجاز بعد أن دام قروناً ، وصار الحجاز متحداً مع نجد في دولة واحدة ، وبدأ عهد جديد في حياة الجزيرة العربية : عهد إصلاح وتعمير ، وتطلع إلى مستقبل مجيد للعرب في داخل الجزيرة وخارجها . ولقد أصبحت « الدولة السعودية » منذ ذلك الوقت قوة ذات أثر كبير في حياة العرب والمسلمين ، وهم يعلقون عليها أكبر الآمال لإتمام الجهد في تحرير أوطان العرب وإكمال استقلالها ، والقضاء على الأخطار التي تهددها .

أما ما كان من شأن مصر والشام في ذلك الدور : فإن إنجلترا أرادت أن تتبع في الأولى سياسة مماثلة لسياستها في العراق ، وهي إرضاء الشعور الوطني مع تحقيق المصالح الإمبراطورية ، أو هي سياسة الحكم غير المباشر بواسطة حكومة وطنية : ففي وجه الثورة المصرية وفشل مفاوضات « سعد — ملنر » ١٩٢٠ و « عدلي — كيرزون » ١٩٢١ ، أصدرت الحكومة البريطانية تصريحها في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ،

الذى اعترفت فيه باستقلال مصر ، ولـكنها فى نفس الوقت تشبثت بتحفظات أربعة تضمن لها بقاء النفوذ ؛ وإن كان إلغاء الحماية على كل حال نصراً للثورة . وقد بقى ذلك التصريح أساساً للعلاقات المصرية — الإنجليزية إلى وقت عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم تـكن أكثر من توضيح له مع بعض التعديل . وبقيت الحاميات الإنجليزية فى القاهرة والسويس ، وظل النفوذ البريطانى يوجه البلاد بواسطة القصر والوزارات الوطنية التى تعلنت الولاء والتحالف مع المستعمرين .

وأما الشام فإن كارثته كانت أفدح الـكوارث . لقد أتمت فرنسا احتلال سورية ولبنان وأخذت تعاملهما معاملة « المستعمرات » ، ولم يكن للانتداب معنى إلا أنه كان « حماية مستترة » . ولم تـكتف بالقضاء على استقلال البلاد بل إنها جزأتها إلى أجزاء منفصلة ، فما أشبهها بالقاتل الذى لا يكتفى بإزهاق روح ضحية بل يعكف على تقطيعها إرباً ! فمنذ يوليه عام ١٩٢٠ أقامت هناك (١) حكومة دمشق و (٢) وحكومة حلب و (٣) حكومة العلويين فى اللاذقية و (٤) حكومة الدروز فى السويداء و (٥) هذا إلى جانب أنها اقتطعت أربعة أقضية « مديريات » هى : بعلبك وطرابلس وصور وصيدا — اقتطعتها من ولاية دمشق فضمتها إلى جبل لبنان ، فوسعت حدوده عما كان طوال العهد العثمانى قبل الحرب ، فصنعت منه ما أسمته « لبنان الـكبير » وأعلنت انفصاله أيضا . فضلا عن شرق الأردن وفلسطين اللذين اقتطعا لإنجلترا ، وما كانا إلا جزءاً من إقليم الشـام الـكبير المتوحد .



فقدت البلاد هكذا وحدتها بعد استقلالها ، وقد أدت هذه التجزئة إلى تدمير اقتصادياتها ، كما أن الاستعمار الفرنسى لم يكن له هدف إلا الاستغلال فأنقص سعر النقد ، وملأ الحـكومة بالموظفين الفرنسيين أو الأرمن ، وفرض الضرائب الباهظة . وقد قضى الفرنسيون على الحريات بكل صـورها ، وطاردوا الأحرار وأكثروا النفى والاعتقال . كما أنهم جعلوا أساس سياستهم « فرِّق تسد » ، فأثاروا العصبيات العنصرية والطائفية ، واستغلوا الدين أسوأ استغلال فـكان حكمهم كله قائما على المحاباة والتحيز — هذا مع أن الجميع يعرفون أن فرنسا بلد الإلحاد ، ولـكنها تظهر

التعصب المسيحى فى معاملتها للمسلمين شفاء لأحقادها الموروثة ، وقضاء لشهواتها الاستعمارية . وقد عنوا بنشر ثقافتهم ولغتهم الفرنسية بينما أهملوا شأن اللغة العربية . واستخدموا المصاريف السرية لإفساد الأخلاق وشراء الذمم ونشر التجسس ؛ ورقوا غير الأكفاء وقربوا إليهم غير الأمناء . وبالجملة كان حكم الفرنسيس فسادا فى فساد ! وهذا هو « الانتداب » أو الوصاية التى أرادتها « جمعية الأمم » ، لتنقل إلى الأقطار الإسلامية حضارتها الأوربية ! . .

وقد ظل أحرار السوريين يجاهدون فى أوربا وفى مصر ، عاقدين المؤتمرات مصدرين النداءات متفاوضين مع الساسة ، يتكلمون باسم القانون والمبادئ فما أجدى كل ذلك فتيلا ! فكانت البلاد متهيئة للثورة . ولما بلغ السخط مداه وضاقت الصدور ، انفجرت الثورة فى عام ١٩٢٥ . وكان سببها الأخير أو المباشر هو إهانة حاكم « السويداء » الفرنسى للدروز ، وإساءته استعمال سلطته إلى حد الوحشية والهمجية . قامت الثورة أولاً بقيادة الدروز ، وعلى رأسهم « سلطان باشا الأطرش » ، ثم انضمت الأمة جميعا للثورة واشترك فى قيادتها زعماؤها الذين كان فى مقدمتهم الدكتور عبدالرحمن شهبندر والسيد نسيب البكرى ، وغيرهم من أبطال الوطنية الذين اشتركوا فى تقرير مصير سورية ولبنان منذ ذلك الوقت إلى اليوم . وقد استطاع الثائرون أن يهزموا أو يحاصروا بعض الجيوش الفرنسية التى أرسلت لمحاربتهم ، وكبدوا فرنسا خسائر فادحة فى المال والرجال . وكان جوابها أنها ارتكبت — كدأبها — كثيراً من الحماقات ، توجتها بضرب « دمشق » بالقنابل ، وسفك دماء النساء والأطفال الأبرياء !

كانت تلك الثورة نقطة التحول فى تاريخ سورية . وقد ردت فرنسا إلى صوابها . ولما اقتنعت بمنطق القوة الذى لا يقنعها غيره ، أدركت أنه يتحتم عليها أن تغير سياستها ؛ فأخذت منذ ذلك الوقت تفاوض الوطنيين وتسعى إلى أن تعقد معهم اتفاقا . وقد قضت فى ذلك الجهد عشر سنوات (١٩٢٦ — ١٩٣٦) . وأخيرا عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم يعتبرها الوطنيون إلا خطوة نحو الفوز بأهدافهم الحقيقية . ولكنهم لم يتمكنوا من التخلص نهائيا من الفرنسيين وطغيانهم إلا فى

ظروف الحرب العالمية الثانية ، حيث هزمت فرنسا هزيمتها المنكرة أمام جيوش ألمانيا التى احتلت « باريس » .

وبينما الشعوب العربية كانت كلها مشغولة بهذا الجهاد ضد الاستعمار ، كان الإنجليز يرتكبون جريمتهم الكبرى فى فلسطين بإجلاء أهلها عنها وتحويلها إلى أرض يهودية . وقد أفردنا لشرح تلك الكارثة مقالات خاصة نشرتها « المسلمون » فى أعدادها السابقة . فما ورد فيها متمم للصورة التى رسمناها لأحوال الأمة العربية فى ذلك الوقت .

كانت هذه — إذن — هى أحوال الشرق العربى فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخه ، بين الحربين العالميتين . وقد كانت كلها — كما تبين — فترة جهاد ضد الاستعمار ، وفترة صبر وتحمل للآلام ، ثم ظهرت فى نهايتها تباشير النصر . وإن هذا الجهاد مستمر اليوم ، حتى تتحقق كل الغايات ، وتُجلى كل الجنود الأجنبية من أوطان العرب والإسلام . غير أنه إذا كانت الأمة العربية قد كسبت أكثر المعركة بالنسبة إلى الاستعمار ، فإن الذى يجب عليها اليوم أن توجه كل جهودها لكسب المعركة الباقية فى « فلسطين » ، فإن هذه هى النقطة السوداء التى يجب أن تمحى ، وهذا هو الخطر الذى يجب أن نجمع جهودنا للقضاء عليه ؟

بحوث السنّة

نواصل فى مطلع السنة القادمة بإذن الله سلسلة بحوث السنة التى يكتبها فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعى ، وقد وعد مشكوراً بموافاتنا بحلقاتها تباعاً .

« التحرير »

حول الكعبة

للإمام الشهيد حسن البنا

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »..

***

هناك قواعد أساسية تقوم عليها الإنسانية الصالحة منها : المساواة ، والأخوة ، ومقاومة الشر ، وحب السلامة والخير ، وحسن الصلة بالله العلى الكبير .

ولقد جاء الإسلام الحنيف ينادى بهذه القواعد ويقررها فرائض من فرائضه ، وأهدافاً توصل إليها كل تعاليمه ، وينطق بها القرآن الكريم ، وتظهر جلية فى أحاديث النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وأفعاله وكل تصرفاته .

ولكن التقرير النظرى لا يكفى وحده حتى تقوم الأعمال التطبيقية والرموز الحسية بتجسيم هذه المعنويات وتدعيمها فى النفوس والأفئدة والأرواح ؛ ولهذه المهمة الجليلة شرع الله الحج وفرضه على المستطيعين من عباده فقال :

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » .

هذا الإحرام ، الذى يتجرد فيه كل حاج من ثيابه جميعاً ويرتدى ثوبين اثنين بسيطين كل البساطة فى شكلهما ولونهما ووضعهما : إزار ورداء لا غير ، إنما هو إعلان لهذه المساواة بين الناس بزوال شارات التفريق التى تحملها هذه الملابس العادية باختلاف قيمها وأشكالها وألوانها ومظاهرها . وإنك لترى الحجاج قد تجردوا من ثيابهم وأحرموا لله رب العالمين فلا تكاد تميز بين أمير ومأمور وكبير وصغير ورئيس ومرؤوس ووجيه ومغمور ؛ كل أولئك قد سوّى بينهم المظهر الجديد فلا اختلاف ولا تميز .

وبهذا الإحرام يحرم على الحاج أن يحلق شعره أو يقص ظفره أو يقطع شجراً أو يهيج صيداً أو يقتل حشرة أو ينال مخلوقاً بسوء ، حتى لو لقى قاتل أبيه لما استطاع أن يمد إليه يداً أو يتجه إليه بانتقام ؛ وهذا تدريب عملى يتجسم به معنى المسالمة والسلام فتنطبع به النفوس وتنطوى عليه الجوانح والقلوب .

وهذه الكعبة المشرفة ، التى رفع قواعدها إبراهيم وأعانه فى ذلك إسماعيل ، إنما هى علم الوحدة الإنسانية والأخوة البشرية ، ورمز ارتباط القلوب والنفوس والأرواح :

« جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البيتَ الحرامَ قِياماً لِلنَّاسِ » .

تهوى إليها الأفئدة وتطيف بها القلوب تارة والأشخاص تارة أخرى ، وتستقبلها الوجوه فى كل مكان إيذاناً بوحدة الوجهة ، وتقديراً لهذه الوحدة .

والحجر الأسود فيها نقطة التقاء المشاعر الإنسانية والمواطف الإخوانية ، فمن صافحه فكأنما يصافح إخوانه من بنى الإنسان جميعاً ، ومن قبّله فكأنما يرسل إليهم على صفحته بإخلاصه ومودته ومظهر إخائه ومحبته .

وهذه الجمرات يقف أمام هدفها الحاج متمثلا أن قوى الشر قد جسمت فى إبليس لعنه الله ، وأن الحاج الآن قد طهر من الآثام ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، بعد أن سعد بوقفة عرفات ، ونزلت عليه من الله الرحمات والفيوضات ، فعليه أن يكون للرحمن وليا ، وللشيطان عدوا ، وإنه ليعرب عن كل هذه المشاعر ، ويرمز إلى مدلول هذه الخواطر بهذا العدد من الحصى يقذف به وجه عدوه اللعين إبليس ، إرضاء للرحمن ، ورجماً للشيطان ، باسم الله والله أكبر .

والحاج فى كل هذه المواقف موصول القلب بالله ، تبارك وتعالى ، معلق النفس والروح بمغفرته ومثوبته ورضاه ومحبته ، فإذا أحرم فشعاره :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

وإذا طاف فعمله دعوات صاعدة إلى السماء ، وابتهال وبكاء ، والتزام ودعاء ، واستلام وتقبيل ، وأنس برحمة الكبير الجليل ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم .

ويقول الذين لا يعلمون : إن هذه الكعبة والحجر من بقية وثنية الجاهلية أقرها الإسلام .

ونقول لهؤلاء : إنما جاء الإسلام ليحطم الوثنية فى كل صورها وليقضى على عبادة الأوثان والأصنام ، وإن كل موقف من مواقف الحج إنما هو تقرير لهذه الوحدانية وإسلام الوجوه والقلوب لله وحده الملك العلام ، وإنما مثل الكعبة والحجر كمثل هذا العلم تنصبه الدول رمزاً لمجدها ، وشماراً لوطنها ؛ فتخفق له القلوب وتهتز لاهتزازه الأفئدة لا لذاته ولكن لما يشير إليه من معنى عظيم ، وشعور كريم . ولقد أراد الله الحكيم العليم أن تكون الكعبة هكذا علماً مركوزاً على الأرض تتجسم به الوحدة العالمية ويرمز إلى هذه الأخوة الإنسانية ، واختار الله إبراهيم ، وهو موضع التقدير والتكريم من كل أهل الأديان السماوية ، لإنفاذ هذه الإرادة الربانية ، فصدع بأمر الله واستجاب لنداء مولاه ، وسأله بعد ذلك أن يتقبل عمله وأن يبارك له فيما أولاه :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، ربنا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

ولعلها الحكمة الإلهية أن يقطع الله على هؤلاء المتربصين حبل الجدل وتشقيق الكلام بأن يختار لهذه المهمة محطم الأصنام .

وإن العمل العظيم فى مغزاه ليصغر إذا جهل الناس هدفه ومرماه ، وكذلك هذا الحج الذى أقام الله به دعائم الصلاح والقوة فى الحياة أصبح عند الكثيرين عبادة آلية عادية يؤدونها وخيرهم من يرجو بها المثوبة والأجر ، أما ما وراء ذلك من المنافع المادية والروحية والاجتماعية التى أشارت إليها الآية الكريمة :

« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ » .

فإنهم لا يطيلون فيها التفكير ، ولا ينظرون إليها نظرة الفاحص الخبير .

فاللهم فقهنا فى ديننا وانفعنا بهذا الفقه فى دنيانا وآخرتنا ، واجعلنا جميعاً من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

كرامة الإنسان وشرفه

لسماحة الأستاذ السيد أبى الحسن الندوى

وكيل ندوة العلماء بالهند

[ساعة مع مولانا جلال الدين الرومى]

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة والفلسفات الخاطئة والأديان المحرفة على الاستهانة بقيمة الإنسان والحط من قدره وشرفه ، وقد نشأ بتأثير الحروب الطاحنة التى كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية مقت شديد فى الناس للحياة وتبرّم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل وشعور عميق بالمهانة أو ما يسمى اليوم بمركب النقص ، وأصبح الإنسان حقيراً فى عينه ، وجاء بعض المتصوفين العجم فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذى تمثله الجملة المأثورة. فى الأدب الصوفى « موتوا قبل أن تموتوا » وغلوا فى إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذى يتوقف عليه الكفاح والحركة والنشاط جريمة خلقية وحجر عثرة فى سبيل الكمال الروحى ، وقد أسرف الدعاة والمؤلفون فى الحث على اكتساب الصفات الملكية والانسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته وأصبح يعتقد أن رقيه فى الثورة على الإنسانية لا فى الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال .

ونشأ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات وانحلال المجتمع وجور الحكومات أدب متشائم وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس والنقمة على الآباء فى جنايتهم على ذريتهم كما فعل أبو العلاء المعرى فى عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم والأمل فى مستقبلهم والرغبة فى حياتهم ، وأصبح الإنسان فى هذا المجتمع المتبرّم الضجر كاسف البال منكسر الخاطر ضعيف الإرادة محطم

الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات فى حريتها ، والجمادات فى سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذى هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة والقوى الجبارة والمواهب العظيمة التى أودعها الله فى باطنه ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون خليفة رب العالمين فى هذا العالم الفسيح ووصيا عليه وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع فإنهم هم الذين يتصرّفون فى هذا الكون بأمر الله ويبلّغون رسالاته ؛ فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

فى هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذى كفر بالإنسان وقيمته ومركزه فى هذا العالم قام مولانا جلال الدين الرّومى يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة فى شعره الرنّان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة فى أنقاض الأدب التشائم والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية فى حماسة وإيمان وبلاغة ؛ حتى دبّ فى المجتمع دبيب الحياة وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنم بهذا الرجز والحداء القوى الأدب الإسلامى كله ، وردّده الشعراء وضربوا على وتره ، وانطلقت فى عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى « الاعتزاز بالإنسانية » .



يذكّر جلال الدين الرومى قراء شعره وتلاميذه أن الله سبحانه وتعالى قد خصّ الإنسان بأحسن تقويم فقد قال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وإن هذا اللباس الفضفاض قد فُصلَ على قامة الإنسان فلا يطابق كائناً آخر . ويحث قارئه على دراسة سورة « التين » والتدبر فى معانيها وأن يحاسب لكلمة « أحسن تقويم » حساباً خاصاً فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره ، ثم يزيد على ذلك ويرجع إلى سورة «الإسراء» ويذكّر بقوله تعالى « ولقد كرّمنا بنى آدم » ويقول للقارىء : (هل وجّه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السموات أو إلى الجبال ؟ إنه لم يوجّه إلا إلى هذا الإنسان الذى يستهين بقيمته ويجهل مكانته ! إن الله قد توّجك أيها الغافل بتاج الكرامة وخصك بقوله « ولقد كرمنا » وحلى جيدك بالمنحة الخاصة فقال « أعطيناك » كلمة لم يقلها لأحد) .

إنه يقول إن الإنسان خلاصة هذا الكون ومجموع أوصاف العالم ، يتمثل

فى هـذا الجسم الصغير ما شتّ فى العالم من خيرات وكنوز ، وبدائع وعجائب : « إنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس ، فإذا طامت لم يبد كوكب ، إنه قطرة صغيرة انصبّ فيها بحر العلم ، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم » يقول إن الإنسان غاية هذا الخلق ، لأجله خلق العالم ، وهو القطب الذى يدور حوله رحى الكون ، تحسده الكائنات ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات : « إن كل ما فى هذا العالم من جمال وكمال إنما خلق لأجلك ويطوف حولك أنت الذى يحسده المقربون ، لست فى حاجة إلى جمال مستمار ، فأنت جمال الدنيا وواسطة العقد وبيت القصيد ، الإنسان جوهر والفلك عرض ، كل ما عداك فرع وظلّ وأنت الغرض ، إن خدمتك مفروضة على جميع الكائنات ، إن عاراً على الجوهر أن يخضع لعرض » .

ولا يقتصر الرد على ذلك ، بل يقول : إن الإنسان مظهر لصفات الله ، وهو المرآة الصادقة التى تجلّت فيها آياته ، يقول : « إن الذى يتراءى فى الإنسان (من الكمالات والمحاسن) عكسٌ لصفات الله ، كعكس القمر المنير فى الندير الصافى ، إن الخلق كالماء النمير تتجلى فيه صفات الله ، وينعكس فيه علمه وعدله ولطفه كما ينعكس ضوء الكوكب الدرى فى الماء الجارى » .

ولكنه يشعر بقصوره وعجزه فى وصف الإنسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويعلن بصراحة وشجاعة :

« إذا صرّحت بقيمة هذا الممتنع[1] لاحترقتُ واحترق المستمع »

ثم يتساءل : هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالى ويمنّى نفسه بشرائه ، وهل يجوز لهذا الإنسان أن يبيع نفسه — مهما تضخم ثمنها — ، ثم يندفع مخاطباً للإنسان ويقول فى تلهف وتوجّع وفى شىء من العتاب والأنفة : « يا مَن من عبيده العقل والحكمة والقدرة ، كيف تبيع نفسك رخيصة ؟ » .

ثم يقول : لا محلّ للمساومة ، فقد تمت الصفقة وتحقق البيع : « إن الله اشترانا وخلصنا من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد ، فالشىء لا يباع مرتين » ثم يحث الإنسان على أن يعرف قيمته ، ولا يرضى إلاّ بأكرم المشترين . ويقول : «ابحث لك

---

(١) يعنى به الإنسان .

— إن كنت باحثاً — عن مشتر يطلبك ويبحث عنك والذى منه بدايتك وإليه نهايتك » .

ويلاحظ الشاعر أن من بني آدم من لا يستحق هذا الوصف ، أشباه الرجال ولا رجال ، الذين هم فريسة نفوسهم ، وقتيل شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلا ما يفوق فيه الحيوان من الشبع والريّ والشبق ، ويقول بكل صراحة : « إن هؤلاء ليسوا رجالا ، إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز وقد قتلت الشهوات فيهم الإنسانية » .

وقد نَدَر وجود الإنسان الحقيقى فى عصره كما ندر فى عصر غيره حتى أصبح فى حكم العنقاء المغرب والكبريت الأحمر ، وحتى اضطر الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح ديوجانس ، وقد حكى الرومى حكاية لطيفة فى هذا الموضوع فى ديوان شعره فقال :

« رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا كأنه يبحث عن شىء! قلت له يا سيدى تبحث عن ماذا ؟ قال قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعا ، وخرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم . لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى برجولته وشخصيته ويروّح نفسى : قلت له : لقد غرتك نفسك ياهذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تتعب نفسك وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسى وأنضيت ركابى ونقّبت فى البلاد فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ إليك عنى أيها الرجل فأحبُّ شىء إلى نفسى أعزّه وجوداً وأبعده منالاً . . »

حياة القلب

إن أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها ، فاخرج عن الركون إلى الخلق ، ومت عن هواك وإرادتك ؛ فهنالك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ، ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ، ويرفع قدرك فى قلوب عباده فلا تحقر بعدها .   « الشعرانى »

الفقه الإسلامي

هل يصلح مصدراً للتقنين الحديث؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق السورية

(١) الشرع بوجه عام

التشريع فى الأمة هو كالأدب فيها ، كلاهما يعطى صورة عن واقع اجتماعى واقتصادى ، ويعبر عما وصلت إليه الحياة فيها من التطور والإدراك الاجتماعى . وبقدر مافى التشريع من قواعد ذات مفاهيم تشريعية عامة عالية الاعتبار تكون درجة رقيه وصلاحية مبادئه للخلود .

وللتشريع ثلاث وظائف كبرى فى الأمة : العلاج ، والوقاية ، والتوجيه .

فهو علاج للعلل الاجتماعية والمشكلات الاقتصادية الواقعة .

وهو وقاية من العلل والمشكلات المتوقعة .

وهو توجيه وتمهيد لاستمرار التكامل حتى يبلغ تنظيم الحقوق والالتزامات والمصالح مستواه الأكمل .

ولكى تتحقق هذه الوظائف الثلاث فى التشريع يجب أن يكون إلزاميا . ثم لكى تضمن له الطاعة يحتاج الشرع الأصلى إلى نوع إضافى من الأحكام التشريعية يسمى : المؤيدات ؛ كالعقوبات على فعل الجرائم ، وكبطلان العقود المخالفة للنظام المشروع فيها . وهذا مايميز الشرع عن المواعظ الأخلاقية المجردة التى لامؤيد لها .

وفى الأمم ذات التشريع الراقى يوجد إلى جانب نصوص القوانين فقه للعلماء المستشرعين (أى نظريات حقوقية وشروح) واجتهاد للقضاة فى فهم النصوص وتطبيقها والقياس عليها بصورة توسع استيعاب النصوص المحدودة إلى آفاق غير محدودة بمراعاة العلل التى راعاها الشارع وتحكيم دلائل نصوصه .

(ب) الشريعة الإسلامية

إطارها العام :

الشريعة الإسلامية هى مجموعة الأوامر والنواهى والأحكام العملية القضائية ، تلك المجموعة التى يوجب الإسلام تطبيقها لتحقيق أهدافه الإصلاحية العامة فى المجتمع البشرى .

فللإسلام ثلاثة أهداف :

١ — تحرير العقل البشرى من رق التقليد والخرافات ؛ ولذا كافح الإسلام الوثنية لأنها انحطاط عقلى ، ودعا القرآن العقول إلى الدليل والبرهان والتفكير العلمى الحر .

٢ — إصلاح الفرد نفسيا وخلقيا ؛ ولذا شرع نظاما لعبادة الله ، يوجه الفرد إلى مراقبة خالقه ومحاسبة نفسه ، نظراً إلى عقيدة اليوم الآخر حيث الثواب على الإحسان والعقاب على الإساءة .

٣ — إصلاح الحياة الاجتماعية بصورة يسود فيها الأمن العام والعدل بين الناس وصيانة الحرمات الخاصة للأفراد ، والحقوق العامة للجماعة . وتحقيقا لهذا الهدف الاجتماعى الثالث جاء الإسلام بقواعد نظام قانونى لإقامة دولة .

فمن الأحكام المشروعة فى الإسلام لهذه النواحى الثلاث تتألف الشريعة الإسلامية . وهذا هو المقصود عندما يقال : الإسلام دين ودولة . والناحية الثالثة — وهى النظام — القانونى هى المقصودة ببحثنا هنا .

النظام القانونى من الشريعة :

إن النظام القانونى من الشريعة تضمّن مبادئ أساسية كانت أساساً لفقه عظيم ونظريات قانونية واسعة فى كل من القسمين الأساسيين اللذين ينقسم إليهما علم الحقوق اليوم وهما : قسم الحقوق الخاصة والحقوق العامة . كما قامت فى ظل هذا النظام القانونى مذاهب فقهية اجتهادية كثيرة أشهرها المذاهب الأربعة الحية إلى اليوم :

الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . والاختلاف بين هذه المذاهب ليس اختلافا دينيا فى العقيدة ، بل هو اختلاف قانونى قضائى نشأ منه ثروة تشريعية عظمى فى النظريات الحقوقية الإسلامية .

وسنعرض فيما يلى خلاصة موجزة جدا عن أهم المبادئ التشريعية فى هذا النظام القانونى من الشريعة بجميع شعبه ، لنتبين مدى مافيه من صفات التشريع الصالح للخلود بقواعده ومبادئه العالمية الاعتبار . وفى هذا النظام القانونى من الشريعة توجد إلى جانب الأحكام الآمرة مؤيدات زاجرة مضمونة بالقضاء ، منها مدنى كبطلان العقود المخالفة ، ومنها جنائى كالعقوبات التأديبية . وبهذا توافرت فى النظام القانونى من الشريعة صفة التشريع بمعناه القانونى الحديث ، وتميزت أحكامه عن المواعظ والأوامر الأخلاقية المجردة (لا كما قد يتوهم من لم يدرسوا الشريعة الإسلامية أنها مجرد أوامر أخلاقية ليس لها مؤيدات) .

إشارة إلى أهم المبادئ الأساسية فى هذا النظام القانونى من الشريعة :

أولا : فى قسم الحقوق الخاصة المدنية والجنائية :

(ا) الحقوق المدنية : اعتبرت الشريعة فى مصادر الالتزامات كل فعل ضار بالغير موجبا مسئولية الفاعل أو المتسبب ، والتزامه بالتعويض المالى ولو كان الفعل الضار خطأ . فإذا كان عمداً أوجب أيضاً العقوبة . وهذا المبدأ تضمنه الحديث النبوى القائل : « لاضرر ولا ضرار » واعتبرت جميع الالتزامات مضمونة بتأييد القضاء . وللقاضى فى الشريعة سلطة قضائية واسعة حتى على السلطان .

أما فى العقود فقد أقرت الشريعة الأسس التالية :

١ — العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره . وجاء فى القرآن : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

٢ — الشروط التعاقدية حرة وملزمة للعاقدين إلا ما يخالف النظام العام والآداب . وهذا ماقررته اجتهادات عديدة منها الاجتهاد الحنبلى .

٣ — العقود كلها رضائية تنعقد بمجرد اتفاق الإرادتين ولا تخضع لشىء من

المراسم الشكلية . ويُلحظ أن أوربا لم تتوصل إلى تقرير هذا المبدأ وتخليص العقود من الشكليات الموروثة عن الرومان إلا فى أواخر القرن الثامن عشر .

٤ — أوجبت الشريعة فى إنشاء العقود وتنفيذها حسن النية وجعل كل غش أو تدليس أو تغرير أو إخلال بتنفيذ العقد من قبل أحد العاقدين مسوغا للآخر فسخ العقد .

٥ — اعتبرت العرف والعادة أساساً لتحديد حدود الالتزامات والحقوق فى كل ما سكت عنه العقد . وكل هذه الأسس تعتبر اليوم من أهم قواعد نظرية العقد العامة فى التقنين الحديث .

(ب) الحقوق الجنائية : أقامت الشريعة نظام العقوبات على أساسين :

١ — كل فعل ، ممنوع يعتبر جريمة ، وكل جريمة توجب العقاب بصورة عادلة تتناسب مع الفعل وتكفى لتأديب الفاعل وزجره . وقد تركت الشريعة عقوبات معظم الجرائم (سوى خمس منها) دون تحديد ، وفوضت للسلطة الحاكمة حق تحديد العقوبات بأنظمة بحسب الظروف الزمانية والمكانية .

وهذه العقوبات المفوضة إلى السلطة الحاكمة تسمى : التعزير . فقوانين العقوبات الحديثة بأجمعها سوى جرائم الحدود المستثناة تعتبر تطبيقاً صحيحا للمبدأ العام الشرعى فى التعزير[1] .

ثانياً : فى قسم الحقوق العامة الداخلية والخارجية :

(ا) فى الحقوق الداخلية :

١ — فى الناحية الدستورية : أقرت الشريعة هنا ثلاثة مبادئ أساسية :

(المبدأ الأول) حرية الأفراد دون إخلال بالنظام العام والآداب ودون تجاوز على حدود حرية الغير .

(المبدأ الثانى) المساواة أمام القانون فى جميع الحقوق فلا امتياز لنسب أو لطبقة

---

(١) ينظر فى ذلك باب التعزير فى كتب الفقه ، وينظر بصورة خاصة كتاب الأحكام السلطانية للقاضى أبى الحسن الماوردى الشافعى الذى ترجم إلى الفرنسية الكونت أوستروروغ .

من الناس خلافا لما كانت عليه حال العرب والرومان والفرس . ففى القرآن : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وفى الحديث النبوى « لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » أى بالعمل الصالح .

(المبدأ الثالث) الحكم فى دولة الإسلام يجب أن يقوم على أساس الشورى . فلا يجوز أن يكون الحكم استبداديا . ولكن الإسلام لم يحدد طريقة تحقيق الشورى ، فيمكن أن تؤسس على نظام جمهورى أو ملكى دستورى أو برلمانى أو رئاسى بحسب المصلحة والحاجة . والشريعة تتنافى تماما مع مبدأ وراثة الحكم ، بل على الأمة أن تختار دائما الأكثر أهلية وكفاية للسلطة العليا . وقد بين الرسول لأصحابه أن فساد الحكم فى الدولة الإسلامية يكون عندما يتحول عن طريقة الخلافة والشورى فيصبح (ملكا عضوضا) أى يعض على الأمة عضا ، ويفرض عليها فرضا .

٢ — فى الناحية الإدارية : قررت الشريعة لممثل السلطة العليا (الإمام) فى الدولة صلاحيات إدارية تنفيذية غير محدودة ، ومن جملتها سلطة إصدار الأوامر الزمنية (الأنظمة) التى لها اليوم فى عرف الدول صفة تشريعية . ولكن الشريعة تمنح الإمام هذه السلطة التنظيمية باعتبار أنها فى الإسلام تطبيق للنصوص الشرعية العامة المقررة سابقا فى الشريعة وليست بتشريع جديد . على أن هذا لا ينافى مبدأ فصل السلطات إذا دعت إليه الحاجة واقتضته المصلحة ؛ لأن الأصل فى الشريعة رعاية المصلحة العامة والتحول معها فى كيفية تطبيق مقاصد الشريعة . حتى إن فقهاء الشريعة صرحوا بجواز الأخذ من المسجد لتوسيع الطريق إذا كانت الطريق ضيقة واقتضت الحاجة توسيعها من جانب المسجد ، بناء على قاعدة المصالح الإسلامية . وقد أوجبت الشريعة على صاحب السلطة العليا فى الدولة الإسلامية أن يكون تصرفه قائما على رعاية الأصلح بنتيجة الشورى . وعلى هذا الأساس وضعت القاعدة الفقهية القائلة (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة) وهذا هو الأساس فى فرض الضرائب وجبايتها ، وتأسيس الخدمات العامة بمختلف أنواعها ، والاستملاك الجبرى للمنطقة العامة ، والتسعير الإلزامى فى المواد الضرورية . وقد صرح فقهاء المذهب المالكى بأن أرباب الصنائع الضرورية للناس كالخبازين مثلا إذا اعتصبوا وامتنعوا عن العمل لأجل زيادة الأسعار والتحكم فيها تجوز شرعا مصادرتهم شخصيا وإلزامهم بالعمل

لحاجة الجماعة . هذا ، وفى الناحية المالية العامة جاءت الشريعة — على خلاف ما كان سائدا حين ظهورها — بمبدأ فصل بيت المال (خزينة الدولة) عن ملك السلطان ، وصرح فقهاء المذهب الحنفى بما يفيد أن بيت المال يعتبر شخصية اعتبارية ، بل إن كل فرع من فروعه يعتبر له شخصية مستقلة . وقالوا : إذا احتاج أحد فروع بيت المال يؤخذ له من فرع آخر على سبيل القرض لا على سبيل الخلط . وهذا غاية ما وصل إليه التقنين المالى الحديث .

(ب) فى الحقوق الخارجية (أى الدولية) :

أقرت الشريعة المبادئ التالية :

١ — الشعوب جميعا متساوية فى الحقوق الإنسانية خلافا لنظرية الشعب المختار الموجودة لدى بعض الديانات أو الأمم .

٢ — المعاملة بين الدولة الإسلامية وغيرها يجب أن تقوم على أساس العدالة : ففى السلم تحترم جميع الحقوق المكتسبة للدول ورعاياها ، وفى الحرب لا يجوز تجاوز الحد الذى يندفع به شر العدو ؛ فلا يجوز تشويه القتلى ولا تعذيب الأسرى ولا القتل التدريجى ، ولا إتلاف الشجر المثمر ، ولا قتل الحيوان إلا للأكل أو الضرورة الحربية ، ولا إيذاء المعتكفين فى المعابد من رجال الدين ولا العاجزين عن حمل السلاح من النساء والأطفال والمسنين والمرضى .

٣ — المعاهدات محترمة بين الدولة الإسلامية وغيرها وملزمة كالعقود بين الأفراد .

٤ — لا تجوز المحاربة دون دعوة إلى قبول الحق ثم الإنذار . وحادثة الخليفة عمر بن عبد العزيز مع أهل سمرقند معروفة ، إذ جاءه وفد منهم مشتكيا على طريقة دخول الجيش الإسلامى بلدهم فنصب لهم قاضيا، فحاكمهم والقائد ، ثم قضى بخروج الجيش الإسلامى من سمرقند ! وهذا لا نظير له فى التاريخ .

٥ — المعاملة بالمثل جائزة إلا فيما يخالف المبادئ الإسلامية (ولذا أفتى الإمام الأوزاعى بعدم جواز قتل رهائن الروم لما خرق الروم معاهدة بينهم وبين المسلمين) وحجة الأوزاعى الآية القرآنية التى تمنع مؤاخذة شخص بجريمة غيره .

هذا ، وقد نشأ حول هذه الأسس فقه تفصيلى واسع مبسوط فى أبوابه من كتب الفقه .

(حـ) حقوق الأسرة (الأحوال الشخصية)

أتت الشريعة بنظام قانوني ينظم جميع أوضاع الأسرة وعلاقتها الحقوقية فبدأت أولاً بإنقاذ المرأة من الوضع المهضوم إذ كانت لا تتمتع بحق الحياة فضلا عن غيره من الحقوق ، فقررت الشريعة للمرأة جميع الأهليات الحقوقية التي للرجل ، وحق الإرث الذى كانت محرومة منه ، وحرية الزواج واختيار الزوج وأهلية الوصاية وحق إدارة أموالها واستثمارها دون سيطرة عليها للرجل من قريب أو زوج . ثم نظمت الشريعة أحكام الزواج وانحلاله وأحكام الولاية والوصاية على القاصرين وأحكام الميراث .

أولا : الزواج وانحلاله :

(ا) انعقاد الزواج ونتائجه : جعلت الشريعة الزواج عقدا مدنيا محضا كسائر العقود يتم بالاتفاق بين الرجل والمرأة بحضور شاهدين دون توقف على مداخلة مرجع ديني ، لأنه لا يوجد فى الإسلام طبقة رجال دين يتمتعون بسلطة دينية ليست لغيرهم . فلا وساطة لأحد بين الله والناس . وكل شخص يُدخله فى الدين إيمانه ويخرجه جحوده . بل ليس للنبي نفسه فى شريعة الإسلام سلطة دينية يتحكم فيها بمصير أحد عند ربه ، بل النبي بحسب نصوص القرآن تنحصر مهمته الدينية فى التبليغ وسلطته الزمنية فى التطبيق . وكل من كان أعلم بأحكام الشريعة وهى أحكام مكتوبة معلنة غير سرية — أيا كان الشخص الأعلم بها — هو أحق بالتكلم فيها ورأيه خاضع للنقد والوزن بميزان النصوص الشرعية الثابتة .

فى ظل هذا الوضع لا يتصور أن يكون الزواج فى الإسلام إلا مدنيا . وبذلك سبق الإسلام الشرائع الحديثة التى أخذت بالزواج المدنى .

وقد أوجبت الشريعة على المرأة متابعة الزوج والسكنى معه وطاعته ضمن الحدود الشرعية، وأوجبت على الرجل نفقة الزوجة والأولاد ، وأثبتت نسب الأولاد فى الزواج غير الصحيح كما فى الزواج الصحيح صيانة للأولاد ، ومنعت الشريعة البنوة الوهمية بطريق التبنى ، وحصرت البنوة وحقوقها بطريق التناسل الحقيقى .

(ب) انحلال الزواج ونتائجه : سوغت الشريعة انحلال الزواج بين الزوجين بالطلاق اجتنابا لمحاذير إلزامهما باستمرار الزوجية عند التنافر وجعلته مبدئيا بيد الرجل

لأنه بذلك يكون أقل ممارسة من جمله بيد كل منهما ، ولا سيما أن الزواج فى الإسلام يكلف الرجل مالاً يسمى مهراً يدفعه للمرأة . ولـكن الشريعة فسحت للمرأة مجال التخلص من الزوجية بطريق القضاء إذا وجد موجب .

وعند انحلال الزواج بالطلاق أو موت الزوج أوجبت الشريعة على المرأة أن تنتظر مدة معينة لايجوز لها خلالها أن تتزوج كى تتحقق فراغها من الحمل ، منعا لاختلاط الأنساب .

ثانياً : الميراث :

أقرت الشريعة الميراث بين الزوجين وبين الأقارب بقواعد وأحكام جديدة بنتها على الأسس التالية :

١ — الإرث جبرى : فليس للمورث حرمان وارثه الشرعى . حتى إن الزوج إذا طلق زوجته فى مرض موته دون رضاها اعتبر ذلك منه إساءة لاستعمال حق الطلاق ودليلا على قصد التهرب من إرثها ، فيثبت لها الإرث شرعا . وبهذا سبقت الشريعة القوانين الحديثة فى نظرية إساءة استعمال الحق .

٢ — رتبت الشريعة الإرث بين الأقارب بنظام محدد ، روعى فيه الأقربية إلى الميت . ويوقف للحمل نصيب عند وفاة مورثه يستحقه إن ولد حيا .

٣ — ليس للولد الأكبر امتياز أو تقديم فى الإرث على أخيه الأصغر خلافا لبعض الشرائع الأوربية اليوم .

٤ — للبنت نصف حصة أخيها الذكر . وهذه المسألة كثيراً مايساء فهمها وتظن غبنا للأنثى ، ولـكنها مرتبطة بنظام التكليف المالى فى الأسرة ؛ فالبنت قبل الزواج نفقتها على الأقرب من رجال الأسرة ، وبعد الزواج على الزوج . فإذا أخذت فى الإرث نصف حصة أخيها المكلف شرعا بنفقة نفسه وزوجته وأولاده ترجع أخته أوفر حظاً منه .

***

وبعد ، فهذه خلاصة من خلاصة كان شأنى فيها شأن من يريد أن يملأ البحور فى زجاجات السطور ، ويلخص عشرات المجلدات ، فيفرغ كل مجلد فى بضعة سطور . وعلى كل أرجو أن يكون فى هذه الخلاصة الخاطفة مايكفى لتكوين فـكرة إجمالية عن الشريعة الإسلامية وفقهها ، وهل يصلح هذا الفقه أن يكون مصدرا لتقنين حديث ؟

خاطرة :

أكلة لحوم البشر

كنا جلوسا نتحدث ، فذكر أخ كريم أستاذا غائبا بخير ، وقال إن مما يعجبه فيه واقعيته ، وحثه المسلمين على الاهتمام بشئونهم العملية ورعاية حكم الله فيها ، وتأثيره على الناس فى ذلك تأثيرا شديدا ، وأنصتنا إليه فى رضاء ، غير أنى لحظت واحدا يستمع بوجه لم أرتح إلى ملامحه ، ثم كان تعليقه على ما سمعه : وماذا بعد واقعيته وتأثيره فى الناس . . . يرشح نفسه فى الانتخابات ، قالها وغمز بعينه ثم ضحك ضحكة ساخرة أليمة ، ومال برأسه إلى الأمام كأنه يطوى صدره على علم أوتيه وحده من دون الناس ، وعلى خبرة تجعله يحكم عليهم بما يشاء ! . . . ولكن الأخ الكريم سرعان ما دفع عن الأستاذ الغائب التهمة الباطلة وقال « إنه مقرر ألا يرشح نفسه للانتخابات قط ! » فملت وجه صاحبنا الضاحك مسحة صفراء ، وكأن هذه التبرئة فجمته فى شىء عزيز عليه ، أو كأنها جاءته مفاجأة تعارض الحكم المقرر عنده فى اتهام السرائر . فسكت ولم يتكلم وبقى ساكنا طوال جلستنا .

***

لم يزعجنى اتهام الأستاذ الغائب بقدر ما أزعجتنى صورة هذا الإنسان الذى اتهمه وهو غائب ، وإنها لصورة قبيحة تزرى بصاحبها ، وأى شىء أقبح من رجل يأكل لحمة أخيه الميت وهو يغمز بعينه ويضحك ملء أساريره ولا يظن عن نفسه إلا أنه العالم الخبير ؟ ! ألم يقل الله « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وهل الغائب بالنسبة لهذا الغامز الساخر إلا كالميت الذى لا يملك دفع التهمة ولا رد العدوان عن نفسه ؟ ! إن ذكره فى غيابه بما فيه غيبة ، وذكره بما ليس فيه بهتان ، وذاكره فى الحالتين يأكل لحمه ميتا !

***

ويزعجنى أشد من ذلك ، أن يشتد أهل الخير على هؤلاء الذين تؤكل لحومهم وتنهش أعراضهم بالباطل ويطالبوهم بالصبر على الأذى ، ولا ينكلوا بأكلة لحوم البشر ويلزموهم جحورهم وينتصروا للأبرياء ! !

برنامجنا الاقتصادى

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة بباكستان

(٥)

الآثار المترتبة على تطبيق نظام النقد المحرر

١ — سعر الصرف :

يقصد بسعر الصرف ثمن النقد الخاص بدولة معينة مقوماً بنقد دولة أجنبية . وهذا السعر يرتكز فى أساسه على الميزان الحسابى بين الدولتين . والميزان الحسابى أو ميزان المدفوعات عبارة عن بيان يعبر عن مركز كل من الدولتين قبل الأخرى من حيث الدائنية ، والمديونية ويشمل عنصرين رئيسيين : (ا) الميزان الحسابى ويقصد به بيان التجارة الخارجة المتبادلة بينهما ويعبر عنه بالميزان أو الحساب المنظور (ب) والحساب الغير منظور ويشمل ما بين الدولتين من دائنية أو مديونية ليست ناشئة عن تبادل السلع الحقيقية الواردة فى الميزان التجارى . مثال ذلك ديون الحرب وفوائدها وتسويات أجور النقل وأرباح الشركات الأجنبية والتأمين بمختلف أنواعه ونفقات السياحة وما شابه ذلك . وهذه التفرقة ليست بذات أهمية كبيرة فى بحثنا هذا ، وإنما سقناها حتى لا تختلط معانى الألفاظ والمصطلحات فى ذهن القارئ .

يتوقف سعر الصرف إذن على نتيجة الميزان الحسابى لكل دولة وذلك على فرض حرية النقد العالمى . وقبل أن نشرح هذه النقطة الدقيقة يجب أن نشير إلى بعض المبادئ الأساسية المتفق عليها فى الاقتصاد والتى لا غنى عنها لفهم هذا الموضوع . فمن المقرر أن الصادرات تدفع بالواردات ، ومعنى هذا أن الأصل فى تسوية المعاملات بين دولتين هو المقايضة ، خصوصا فى العصر الحاضر حيث يصعب الدفع بالذهب ؛ وحيث إنه يصعب جداً أن تستورد البلد نظير صادراتها لبلد آخر سلعا تعدل نفس

القيمة على التمام فإن نظام التحويل يسهل هذه العملية . مثال ذلك أن مصر تستورد مثلا من ألمانيا بما قيمته ١٠٠ وحدة وتصدر لها بما قيمته ٥٠ وحدة فقط فهي مدينة لها بقيمة ٥٠ وحدة . فإذا كانت مصر دائنة لفرنسا بقيمة ٧٠ وحدة مثلا فإنها تستطيع أن تحول من هذا الدين قيمة ٥٠ وحدة لحساب ألمانيا . ومعروف أن هناك مصرفا عالميا مركزه بال في سويسرا اسمه بنك التسويات الدولى International Bank of Settlement. هذه وظيفته الأساسية .

والآن لنشرح كيف يتحدد سعر العملات حاليا . معلوم أن أكثر دول العالم أعضاء في مؤسسة النقد العالمية I. M. F. التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، وأن هذه المنظمة قد حددت أسعار النقد لكل دولة بالنسبة لوحدة رمزية معادلة للدولار الأمريكي الذهب واسمها اليونيتاس Unitas . وبهذا ربطت نسب العملات بعضها إلى البعض ، وتعهدت الدول الأعضاء أن تلتزم هذا (السعر الرسمي) في معاملاتها مع بعضها البعض . ولا شك أن هذا التحديد تحديد صناعي مرتهن بالسياسات التجارية الحمائية التي تتبعها دول العالم أجمع ، وقد نتج عنهما (التحديد والسياسة التجارية) هذه الرقابة الشديدة على تحرك رءوس الأموال من بلد لآخر وعلى حركة التجارة بين الدول . ولسنا ننكر أن هذا النظام وضع للظروف الشاذة التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية كما لا ننكر أن واضعي هذا النظام قد نصوا على وقتيته وعلى ضرورة إلغائه في أقرب فرصة ، بل إنهم حددوا عام ١٩٥٣ ليكون الحد الأقصى الذي لا يصح تجاوزه ، ومع كل هذا فقد بنت الدول التي دمرتها الحرب اقتصادياتها على أساس هذا النظام الشاذ ، ولما أن حلت سنة ١٩٥٣ لم تتخل هذه الدول عن الحماية ورأت أن مصلحتها تقتضي استمرار الرقابة النقدية والاحتفاظ بالأسعار الرسمية ، كما قررت أن عجز موازينها الحسابية لن يسمح لها بتحرير نقدها والسماح لرءوس الأموال بالدخول والخروج دون ضابط أو رقيب ، كما أبقت على العوائق التجارية القائمة لتحمي تجاراتها وصناعاتها من المنافسة الخارجية .

وبصرف النظر عن صواب هذه الإجراءات أو خطئها فإننا في هذا المجال لا نعرض إلى نظرية الحماية ، بل سنحاول أن نبين إمكانية تطبيق نظامنا في ظل

النظامين ، أعنى نظام الحماية القائم ونظام الحرية المرتجى حلوله بعد فترة طالت أو قصرت .

أما فى حالة الحماية القائمة فالتطبيق سهل واضح ، إذ سيحدد سعر الصرف على أساس الذهب وحسبما يتقرر فى صندوق النقد الدولى ، وسيكون من الأيسر على الدولة التى تطبق نظام النقد المحرر أن تشق طريقها فى السوق العالمية نظرا لأن تثبيت السعر الداخلى لمستوى الأسعار (أو تثبيت القوى الشرائية) مع ازدياد الإنتاج مما يطمئن كلا من المستورد والمصدر على مستقبل السعر بالنسبة للسلع . فالمستورد يمكنه أن يحجز طلباته مقدما دون خوف من انخفاض مستقبل ، والمصدر يمكنه أن يرتبط مع المنتج والمستورد دون خوف كذلك من تغير كبير فى السعرين الداخلى والخارجى . فإذا كانت البلد التى تتبع النظام النقدى المحرر متمتعة بميزان حسابى متوازن فإن ذلك سيكون مدعاة إلى استقرار وتوازن يكسبان التجارة الخارجية قوة على قوتها ويعينان الاستهلاك المحلى على توفير حاجات الناس بتكلفة أقل . على أن هذا الفرض ليس كثير الحصول . والواقع أن أكثر الدول تعانى عجزا فى موزاينها الحسابية وسبب ذلك مرده إلى أمرين : ما خلفته الحرب فى الدول الغربية من دمار وما نزعت إليه الدول الزراعية والدول المتخلفة من محاولة التصنيع . وفى الحالين تحتاج الدول إلى رءوس أموال ضخمة لتعمر بها ما خرب أو لتنشىء صناعاتها الجديدة . هذا العجز فى موازين المدفوعات يقابل عن طريق القروض الخارجية أو الدفع بالذهب أوبهما معا ، على أن ذلك العجز لا يمكن أن يستمر طويلا لأن المقرضين سيحجمون عن الإقراض ، ولأن معين هذه الدول من الذهب لن يكفى لمقابلة العجز سنين متوالية . من أجل ذلك تمم الدول طريقة الموازنة عن طريق سلوك السبيل الأصلية وهى الدفع بسلع تنتجها مصانعها التى أنشأتها بقروضها أو بذهبها . هذا الوضع لن يختلف فى حالة تغيير أساس النقد فى الدولة المحررة اللهم إلا من ناحية واحدة هى أن إنشاء المصانع الجديدة وزيادة القوى الإنتاجية سيكون أسرع وأسهل بكثير فيها منه فى غيرها وذلك لطبيعة الاستثمار فى كل من الدولتين .



أما إذا سار العالم خطوة إلى الأمام وقررت الدول الأعضاء فى صندوق النقد

الدولى أن تحرر عملاتها وأن تجعلها قابلة للصرف والتداول خارج بلادها (مثال ذلك الدولار الأمريكي والدولار الكندى والفرنك السويسرى) فإن سعر الصرف سيكون خاضعا إلى الميزان الحسابى للدولة وفى هذه الحالة لن تملك السلطة المحلية أن تحدد سعر الصرف كما تشاء بل سيكون لزاما عليها أن تخضع لحكم الدائنية والمديونية . ولتوضيح هذا نضرب مثلا مبسطا للأمر ؛ العلاقة بين مصر وألمانيا : فى الأوقات العادية حينما تصدر مصر قطنا إلى ألمانيا فإن التاجر المصرى يتقاضى قيمة قطنه كمبيالة مسحوبة على ألمانيا ولا يتقاضى ماركات ألمانية . هذه الكمبيالة تكون بيد بنك المصدر لفترة من الزمن حتى إذا أراد مصرى آخر أن يشترى آلات من ألمانيا وأن يدفع ثمنها ذهبا إلى المصرف الذى بيده الكمبيالة واشتراها وبعث بها إلى المصدر الألمانى . ويسمى السعر الذى تشترى به هذه الكمبيالة سعر الصرف فى القاهرة للمارك الألمانى . وبدهى أنه إذا كانت مصر تصدر سلعا وخدمات أكثر مما تستورد فستكون الكمبيالات المسحوبة على الألمان والمعروضة فى سوق القاهرة أكثر من الطلب عليها ولهذا تنخفض قيمتها . وحيث إنها تمثل ماركات ألمانية فيعنى هذا انخفاض سعر المارك بالنسبة للجنيه المصرى فى سوق القاهرة .

إذا اتضح هذا بدا جليا أن النقد المحرر لا بد أن يخضع للميزان الحسابى فى نظام اقتصادى حر ؛ ولا شك أن هذا الوضع يؤثر تأثيرا مباشرا فى القوة الشرائية للنقد داخل البلاد ، ذلك أن أسعار السلع المستوردة المشابهة للسلع من المنتجات المحلية أو البديلة عنها تؤثر فى مستوى الأسعار وينعكس هذا التأثير بطبيعة الحال فى القوة الشرائية للنقد . فإذا أردنا أن نحتفظ بمستوى أسعارنا ثابتا بقدر المستطاع اصطدمنا بهذه العقبة ولزم علينا إما أن نعالج تكاليف الإنتاج أو نغير من السعر عن طريق تغيير كمية النقود . وعلى كل حال فإن السياسة التى يجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال تتوقف على عوامل كثيرة جداً وهى من باب فن الاقتصاد التطبيقى أكثر من كونها نظرية اقتصادية . ويكفى أن نذكر هنا أن أكبر عامل يؤثر فيها هو مدى انتشار نظام النقد المحرر بين سائر الدول ومدى التعاون الاقتصادى الدولى والقدرة الإنتاجية المحلية وطريقة التسوية النهائية للمدفوعات .

ومهما كانت الظروف فإنه من الناحية الفنية لا توجد أدنى صعوبة لتعترض نظام النقد المحرر فى الحياة العملية سواء ظلت الأوضاع النقدية العالمية على ما هى عليه أم تدهورت أم تقدمت نحو الحرية العالمية ، وسواء انفردت دولة واحدة بهذا النظام أم شاركتها غيرها من الدول . وكل ما يحدث هو تأخير الانتفاع ببعض نتائج هذا النظام حتى تستقر الأحوال المالية وتتحسن أمورها .

٣ — المصارف أو البنوك :

يهتم كثير من الناس بالسؤال عن مصير المصارف التجارية إذا طبق هذا النظام ، ويخيل إلىّ أن الناس تعطى هذه المصارف نوعا من القداسة مصدرها الجهل بنشاطها وسرية أعمالها ، وتلك الهالة التى أحاطت هذه المنظمات أنفسها بها حتى ظن أكثر الناس خطأ أنه لا غنى عن المصارف بشكلها الحالى ، وأن أى اقتصاد لا ينزلها منزل الصدارة سيبوء حتما بالفشل . وهذا وهم لا يثبت لتمحيص ، فإنما وجدت المصارف أصلا كنتيجة لوجود الفائدة ولمقابلة ضرورة الأقراض التى نشأت عن فصل عملية المقايضة إلى شقين مستقلين : الشراء والبيع . ولسنا بهذا نعنى أننا سنلغى المصارف فى نظامنا الجديد ولكننا فقط لن نعطيها هذه الأهمية الكبرى ، ولن نسمح لها أن تلعب هذا الدور الخطير الذى تهز به كيان المجتمع الاقتصادى ؛ إذ المصارف (تحقق الائتمان) وتحبس النقود حين تقتضى المصلحة أن تبسط بها يدها وتتقاضى فائدة مرتفعة يتحملها المستهلك أو المنتج مما يؤدى دواما إلى عرقلة تبادل السلع ، وتمد للمموِّلين سبل السيادة النقدية بما تهيئه لهم من تحصن فى تخزين المال واستثماره بفائدة لا مبرر لها ولا منطق .

ولننظر الآن فى وظيفة المصارف فى نظامنا النقدى المحرر كما شرحناه آنفا : فأولاً لن يتمكن المصرف من احتجاز النقود فى خزائنه فى شكل ودائع فى حسابات جارية ، لأن ذلك يعنى تحمل الضريبة النقدية وسيقتصر عمله فى هذه الناحية على توصيل الأموال من وإلى صندوق الاستثمار : أى أنه سيكون بمثابة وكيل له إذا اقتضى الأمر ذلك .

وإذا انعدمت الودائع الجارية لم يتمكن المصرف من خلق ائتمان أى لم يتمكن من زيادة النقد المتداول عن طريق استعمال أموال المودعين فى الحسابات الجارية لإقراض منهم فى حاجة إلى أموال . وفيما يختص بالودائع الثابتة لن يعدو عمله ما يقوم به صندوق الاستثمار أى أنه سيضطر إلى استثمار أموال المودعين لحسابهم أو لحسابه (إذا صرحت له الدولة بذلك) على أن يضطر إلى شراء أسهم بعض الشركات التى يرى أنها أكثر ربحا ، وسواء تم الاستثمار لحساب العميل (وفى هذه الحالة يعتبر المصرف سمسارا لا أكثر) أو لحساب المصرف على أن يوزع معدل الأرباح بنسب الودائع (وفى هذه الحالة يقوم المصرف بوظيفة مؤسسات الاستثمار) فإنه لن يتمكن من احتجاز المال لديه ولا من التحكم فى كمية النقد المتداولة .

بقيت للمصرف وظائف أخرى هامة أهمها تسهيل عمليات الاستيراد والتصدير وشراء وبيع الكمبيالات المسحوبة على الخارج وإعطاء الضمانات المصرفية وغير ذلك من العمليات الثانوية التى لا تؤثر فى الاقتصاد القومى وعمليات التمويل . وبالاختصار ستكون عمليات المصارف أقل من نصف ما نشاهده اليوم ، كما أنها ستكون من البساطة بحيث لا تحتاج إلى ربع عدد الموظفين الموجودين بها حالياً . ولا شك أن هذا سيتم بها تدريجيا وتبعا لرسوخ النظام الجديد .

٣ — التجارة الداخلية :

إن النظام الجديد سيؤدى حتما إلى سرعة تداول النقود وبعبارة أخرى سرعة تداول السلع استهلاكية كانت أم إنتاجية ، كما أن طبيعة هذا النظام تقتضى أن يفضل الفرد أن يدفع (مقدما) وذلك عكس المعروف حاليا إذ أن جمهور المستهلكين يفضلون الدفع مؤجلا وذلك لأن النقد فى النظام الجديد باهظ التكلفة إذا اختزن . ينجم عن هذا أن المستهلك إذا احتاج إلى سلعة غير متوافرة فى السوق فضل أن يدفع ثمنها مقدما إلى التاجر ليشتريها له من المنتج فى أقرب فرصة . وطبيعى أن يسارع التاجر إلى دفع المبلغ إلى المنتج ليتخلص من عبء الضريبة ولن يقبل المنتج هذا الحل ما لم يطمئن إلى أنه سينفقه حال استلامه فى شراء المواد الأولية والآلات اللازمة وأجور العمال الخ . إن مجرد اضطرار الفرد إلى التخلص من النقود يبسط العملية التجارية ويقضى على كثير من عناصر المضاربة إذ أننا فى الوقت الحاضر نشترى بنقودنا

المخزونة سلعاً نظن أنها ستروج فى موسم معين أو فى المستقبل القريب أو البعيد ، وليس من الضرورى أن ندفع الثمن كله أو أن نستلم السلعة فور شرائها . ونحن بهذا نضارب إذ لسنا واثقين تماماً من أن المشترى سيقبل على هذه السلعة بالدرجة التى نتوقعها وقد يخيب ظننا وقد لا يخيب وقد يشتد الطلب بدرجة أكبر مما توقعنا . ونحن فى كل حالة نحسب الثمن الأساسى متضمنا فائدة رأس المال الذى نستثمره فى هذه المضاربة . وسواء خسرنا أم ربحنا فإنما الخسارة والربح يحتسبان بعد خصم الفائدة ، فإذا فرضنا أن التاجر قرر أن يبيع بثمن التكلفة فإن هذا الثمن يتضمن فائدة رأس المال التى تزيد وتنقص حسب الأحوال .

هذا الوضع سيتغير من أساسه ولن تتأتى تلك الفرص التى يضارب فيها التجار فيثرون الثراء الفاحش أو يخسرون الخسارة المبينة من جراء الخطأ فى التقدير ؛ ذلك لأن التاجر لن يجد المقرض الذى لا يهمه إلا أن يستحوذ على الفائدة ، بل سيجد المال متوافرا لديه عن طريق المستهلك . أما المنتج فهو لن يغامر كثيرا إذ سيكون حكمه مبنيا على طلبات حقيقية . والنتيجة النهائية لهذه الصورة هى قلة مكاسب التجارة لقلة المخاطرة فيها ولثبات الأسعار النسبى ، وبالتالى فإن المشتغلين بهذه المهنة سيقل عددهم خصوصاً وأن الإجراءات التجارية ستكون أبسط بكثير مما هى عليه الآن . على أن الوضع الجديد سيتكيف حسب العرف والعادات ومقتضى الأحوال ، ولكنه لن يطابق ما هو معهود من تعقيدات ومجازفات كالتى نشاهدها فى النظام القائم .

٤ — التأمينات الجماعية :

المقصود بهذا الاصطلاح ما اقتضته ضرورات النظام القائم من حماية لمصالح العمال والموظفين والزراع فهؤلاء عرضة من آن لآن للبطالة وأخطار العمل ، لهذا عمدت الحكومات إلى إنشاء نظم التأمين الجماعية لتكفل للفقراء سبل الحياة إذا أقعدتهم الشيخوخة أو أعجزهم المرض أو داهمتهم البطالة ، كما عمد العمال والموظفون من جانبهم إلى إنشاء الاتحادات المهنية والنقابات الطائفية لتحمى كل فئة نفسها من عدوان الفئات الأخرى ؛ وبهذا تميزت مصالح كل طبقة عن الطبقات الأخرى ، حتى ليظن الرائى أن أمة بهذه الطبقات ليست إلا فئات من الناس تحترب مصالحها

وتتعارض مقدراتها وأهواؤها . وهذا الخلاف الشديد بين مختلف الطبقات ليس إلا وليد النظام نفسه ، إذ أن أصحاب رءوس الأموال ينعمون دائما حتى ولو خسروا الكثير فى أيام الأزمات بينما العامل الفقير يتضور جوعا هو ومن يعول إذا تعطل يوما أو بعض يوم ، وقوة الأول مستمدة من قوة ماله ، وهذه القوة لا سند لها من شريعة أو قانون أو منطق علمى سليم ، بل هى كما أوردنا من قبل قوة اكتسبها الأغنياء وتوارثناها على مر العصور فبدت كأنها جزء من الحياة الطبيعية . ومما يزيد الطين بلة أن الفلسفة الاجتماعية فى العصر الحاضر تنبنى على المادية المحضة وتنكر التعاطف والروحانية .

أما فى نظامنا المحرر فالحال غير الحال ، إذ أن طبقة الرأسمالية ستنعدم ولن يتحكم امرؤ فى غيره عن طريق استمداء ماله عليه . بل إن صاحب المال سيحرص على استثماره فى الإنتاج ومعنى هذا أنه سيحرص على إعطائه لغيره من المنتجين والعمال . كما أن احتمال حدوث الأزمات وما يصحبها من بطالة سيكون أقل ما يمكن وبشكل تسهل معالجته ، فإذا أضيف إلى هذا ما فى النظام الإسلامى من تكافل وما للفرد من حقوق قبل مجتمعه وحكومته أمكننا أن نقول دون مغالاة أو شطط : إن حرب الطبقات التى نراها مشتعلة فى جميع دول العالم لن تجد لها زادا تأكله « والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله » .

فهذه الشركات التى ألفت لتؤمن ضد البطالة أو العجز أو الشيخوخة وهذه الملايين التى ترصدها الحكومات لنفس الغاية ستتحول جميعا إلى طاقة إنتاجية ، يستفيد منها المجموع ويحولونها بدورهم إلى استثمارات إنتاجية تفيء عليهم من الخير ما يطمئنهم إذا داهمهم مرض مقعد أو موت مفاجىء أو بطالة غير متوقعة . وليس معنى هذا أن كل تأمين سيلغى بل سيكون التأمين موجودا ولكن تقوم به سلطة حكومية وعلى نطاق ضيق هو النطاق الذى يقرره الإسلام والذى يشمل من انقطعت بهم سبل الرزق بعجز طبيعى فيهم . ولست أحب أن أبين هنا النظام الإسلامى الاجتماعى وحق النفقة على الأقرب فالأقرب ، ولكن فقط أشير إلى أنه فى بادئ الأمر ستبقى هذه المؤسسات للتأمين فترة قصيرة ريثما تدور عجلات الإنتاج وتزداد الأجور وتطبق القوانين الإسلامية فى سائر مرافق الحياة ؟

سبحات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
سفير مصر بالباكستان

الناس عبيد الواقع

أقطع حجة عند الناس الواقع . إن تجادلوا فى أمر أجائز أم غير جائز ، أو نافع أم ضار ، أو جميل أم قبيح ، فقيل إن جماعة فعلته أو واحدا من الكبراء أتاه ، كان لهذه الحجة فى الجدل ما ليس لقضايا العقل ، وأحكام الوجدان . وعدّت من « السوابق » .

وقد شاعت سياسة الأمر الواقع فى هذا العصر ، تعمد إليها حكومات أو طوائف أو آحاد ، فيما يشجر بينها وبين غيرها من نزاع — فيقال قابله بالأمر الواقع أو وضعه أمام الواقع . والحق أن المفكر المعتدّ بفكره المعتز بنفسه ، لا يرى فى الواقع حجة ؛ فكم من واقع هو زور أو جور أو ضرر — إن جهاد المصلحين فى الأمم أكثره لإزالة الباطل والشر : أى إزالة الواقع المكروه وإثبات النافع ، ولعل أكبر ما يميز أمة من أمة ، وإنسانا من آخر هو الخضوع للواقع أو الاستكبار عليه ؛ الأمة الجاهلة الضعيفة ترى الواقع أوضح حجة من أن يجادل فيه ، وأرسخ أساسا من أن يُطمع فى هدمه . والأمة العالمة القوية يستوى فى رأيها الواقع ، وغير الواقع ، ويلتقى فى عزمها ما وقع وينبغى أن يزول ، وما لم يقع وينبغى أن يكون . هذا تمحوه وذاك تثبته . وإنما مردّ الأمر فى القبول والرد أو الاستحسان والاستقباح هو إدراك النفع فى الأمر أو الضرر . فلا ينفع ما تكرهه أن يقع ويتكرر وقوعه ويدوم أثر الوقوع أجيالاً . ولا يضر ما تقبله أنه لم يقع ولم يألفه الناس فهم يعجبون منه وينفرون ، أو يعترضون فيه ويحادّون .

هذا عندى قياس الأمم والآحاد ، فى عقولها وعزائمها لا الذى أدركه أبو الطيب فى طباع الناس حين قال :

كل ما لم يكن من الصعب فى الأنفس سهل فيها إذا هو كانا

وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب

لعل كثيراً من الناس تساءلوا ما الساعة وكيف تكون كلمح البصر أو أقرب ؟

إن عمل العلماء الباحثين فى قوى الطبيعة الكاشفين عن أسرارها يكاد يجعل أمر الساعة هذا مما يتناوله العلم بتحقيقه وتجربته ، فهم يكشفون عن قوى الذرة ويسلطونها للشقاء ، على الإنسان وما صنع ، يدكون بها المساكن والمصانع ويهلكون الحرث والنسل. فقد اخترعوا القنبلة الذرية ويتحدث الباحثون عن قنبلة أشد تدميراً من القنبلة الذرية . يقولون إنها قنبلة من الإيدروجين .

ويخشى بعضهم أن يؤثر انفجار هذه القنبلة على الماء فيشمله . فإن اشتعل الإيدروجين فى البحار شمل الدمار الأرض ومن عليها فى لحة . ولعل بحثا آخر عن قوى الطبيعة الكامنة وأسرارها الباطنة يكشف عن وسيلة إلى إشعال الهواء . فإن اشتعل الهواء التهمت النار الأرض ومن عليها فى طرفة عين . وهكذا يكشف العلم عن الأسرار ويوجهه شقاء الإنسان إلى الدمار .

ليس بعيدا أن يتمادى الإنسان فى بحثه ولعبه ، وكشفه وعبثه ، حتى يلمس قوة من قوى الطبيعة التى يدركها أو سراً من أسرارها التى لا يدركها ، فإذا الهلاك الوحِيّ والدمار الفجائى وإذا الآية « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .

ردّ الحقوق

قيل لمالك بن دينار : ادع لفلان المحبوس ، فقال : مَثل محبوسكم مثل شاة غدت إلى عجين فقير فأكلته ، فأتخمت ، فصاحبها يقول : اللهم سلمها ، وصاحب العجين يقول : اللهم أهلكها . ولا ينفع دعاء صاحبها من دعاء المظلوم .

فقولوا لصاحبكم يردّ إلى كل ذى حق حقه فإنه لا يحتاج إلى دعائى حينئذ .



* حيرة المسلمة المصرية .
* حول الجامعة الإسلامية .

هذه رسالة من مسلمة فى موضوع يشغل بال المسلمات فى هذه الأيام إلى فضيلة الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا :

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى الزرقا المحترم .

السلام عليكم ورحمة الله وبعد : فقد استعلمت عن عالم أستفسره فى أمر الحجاب الشرعى وكيف يمكن أن تخرج المرأة المسلمة بشكل يتلاءم مع هذا العصر وهذا المحيط ولا يتنافى مع جوهر الدين ؟ فأرشدونى إلى أن فضيلتكم طالما جمعتم بين علمى الدين والدنيا ، لذا أرجوكم أن تجيبونى على أسئلتى هذه :

كيف كانت تخرج نساء المسلمات فى صدر الإسلام ؟ وهل الحجاب إلا وليد عادات العباسيين فى دور انحطاطهم ؟ .

ماذا لو خرجت المرأة المسلمة سافرة الوجه بدون زينة بوضع (إشارب) مع تبيان جزء بسيط من الشعر حيث أن عدم تبيان هذا الجزء البسيط من الشعر يجعل منظر المرأة المسلمة مستغربا وموضع استهزاء الأكثرية الساحقة من الطبقة المثقفة المائلة وعنوان تأخر عند أكثر الشعوب الراقية . بهذا أصبحت المرأة المحجبة تشعر بأنها دون غيرها قيمة وقدراً مما جعلها تستصعب دينها إذ هو فى الحقيقة فرض عليها الحجاب وتضع الحجاب رغما عنها دون عقيدة أو إيمان . فهل ديننا الحنيف يأمر بأن تكون المرأة المسلمة مثالا للرجعية والانحطاط ، وعدم الذوق أم يأمر بأن تكون قدوة

حسنة ومثالا للمرأة الراقيـــة التى تضاهى نساء العالم شكلا وذوقا وتفوقهن أخلاقا وعفافا ؟ . . . . .

وفى الختام تفضلوا بقبول فائق الشكر والاحترام .

فلانة
من حمص

* * *

وهذا رد فضيلة الأستاذ الزرقا الشافى على هذه الرسالة :

إلى الأخت الكريمة السيدة المصونة (فلانة) حفظها الله .

السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد : فقدتلقيت رسالتك التى تسألين فيها عما إذا كان من الجائز فى حكم الإسلام أن تخرج المرأة المسلمة بهذا المنديل الذى يسمونه اليوم (إيشارب) تلقيه على ناصية رأسها مع تبيان مقدم شعرها كى لا تكون موضع استهزاء لدى الأكثرية الساحقة من الطبقة المثقفة ، وعنوان تأخر عند أكثر الشعوب الراقية ، ولكى لا تشعر بأنها دون غيرها قيمة وقدرا مما يحملها تستصعب دينها إذ تكون مثالا للرجعية والانحطاط وعدم الذوق الخ . . . .

وقد تأخرت عليك قليلا فى الجواب لكثرة مشاغلى ، والآن أختلس من وقتى ما أكتب فيه إليك هذا الجواب الموجز المستعجل ، ولعلى أتمكن فيما بعد من التفصيل الذى يحتاج إلى بسط وتشريح وارتباطات بنواح لا مجال لاستيفاء إيضاحها الآن .

إن النصوص القرآنية تفرض على المرأة المسلمة لباسا ساترا محتشما عند خروجها من بيتها :

« يأأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » .

أى أن هذا أقرب إلى تمييزهن عن غيرهن ومعرفة أنهن مسلمات بسبب حشمة ملابسهن وسترها كى لا يتعرض لهن الفساق ظانين بهن السوء لمظاهرهن المريبة .

فالمرأة المسلمة يجب أن تكون ملابسها من الحشمة وستر المفاتن بحيث تعرف منه أنها مسلمة لأنها مستترة محتشمة غير مثيرة للأنظار والشهوات . وقال تعالى أيضا :

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » .

والجيب هو فتحة صدر الثوب . فيجب أن يكون الخمار — وهو الذى يقنع الرأس من الجبين إلى القفا — طويلا بحيث ترد فضلته على العنق وعلى فتحة صدر الثوب من الأمام كى يستر ما يمكن أن تبديه هذه الفتحة من صدر المرأة .

فلو رسمت أيتها الأخت صورة لهذا اللباس الذى أوجبه القرآن على المرأة المسلمة، ولاحظت معنى الجلباب وما فيه من استيعاب ، ومعنى الخمار وكونه ضافيا بحيث يكفى لأن يرد على الجيب ويكمل من الستر ما لا يبلغه الثوب ، لرأيت أن أصدق مثال اليوم لهذه الصورة التى حددها القرآن للابس المرأة المسلمة هو اللباس الذى تخرج به الراهبات المسيحيات بقطع النظر عن القبعة العالية التى يلبسنها فى رؤوسهن .

يتبين لك من ذلك أن إبداء المرأة شيئاً من مقدم شعر الناصية أو من الصدر أو من العنق أو من الزندين أو الساقين أو كشف الرأس أجمع كل ذلك حرام فى دين الإسلام بمقتضى نص القرآن الكريم ، يضاف إلى ذلك ضيق الثوب أو رقته الشفافة بحيث يصف ما تحته من بدن المرأة شكلا أو لونا .

وأما ما أشرت إليه من أن هذا التستر والاحتشام فى ملبس المرأة المتمسكة يجعلها عرضة لاستهزاء الطبقة المثقفة الخ . . . فهذا لا يقام له وزن ، لأن الفضيلة فضيلة ولو استهزأ بها الجاهلون الجاحدون المنحلون . والإسلام دين دعوة إلى الخير والكمال يفرض حدوده التى يحمدها العقل والحكمة والحشمة فى سائر الأحوال ولا يتنازل عنها أو عن شىء منها بحسب استعداد أهل الفساد ، ويوجب على أهله أن يبقوا فى مستواهم الرفيع ويسعوا إلى رفع الفاسدين إليهم ، لا أن ينزلوا هم إلى مستوى الفاسدين . وإلا فإذا صح لك أيتها الأخت الكريمة أن تجارى أهل الاستهتار فى كشف شىء من الرأس إذا كانوا يرون خلافه من السترة المحتشمة قلة ذوق يسخرون منها . فماذا تقولين لو أصبحوا يرون من الذوق كشف الرأس كله ، وإظهار الزينة والفتنة الكاملة ، بل وكشف جانب من الصدر والأثداء وتعرية اليدين إلى الآباط كما درج

عليه فريق كبير من أولئك المثقفات أو المستهترات من الأسر الغنية البطرة ، ويسخرن ممن لا تفعل مثلهن من المحتشمات فهل ترين من الواجب عليك متابعتهن فى هذه الحدود كى لا تكونى فى نظرهن عنوانا على قلة الذوق والتأخر ؟ بل ماذا تقولين لو علمت أن كثيراً مما بدأ اليوم شربُ النساء للخمور فى الحفلات ، ورقصهن مع الرجال الأجانب ، وأصبح هذا عنوان المدنية والذوق والفكر المتحرر والتقدمية الخ . . ويسخرن منك إن لم تفعلى ذلك فهل ترين من الواجب متابعتهن ؟ إن قلت لا فما هو الحد الذى يجب أن تقفى عنده متى استسغت ترك بعض الحدود الإسلامية مجاراة لأذواقهن ؟ فمن الواجب الوقوف عند حدود الشرع الواضحة الصريحة ولا أقول لك أن تتبعى رأى كل متزمت متشدد ، بل تمسكى بحدود القرآن والسنة الإسلامية الواضحة فهى الحجة ، ثم اتركى للناس فسقهم وفجورهم ، ولتكن نفسك مطمئنة بأنك على هدى فى محيط فاسد ، وأنك من الغرباء الذين قال فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » .

ويجب أن تعلمى أن الإيمان لا يقبل التجزئة . فمخالفة أوامر القرآن الواضحة إن كانت عن استباحة فهى كفر والعياذ بالله ، وإن كانت عن ضعف فى العزيمة تجاه الشهوات مع الاعتراف بالحرمة فهى معصية تختلف درجتها بحسب درجة التحريم . ولو أردت أن تحاكمى كثيرا من هؤلاء النساء المسترسلات فى استباحة الشهوات والفجور إلى محكمة القرآن الحكيم لكان الحكم قاسيا جداً لأنهن تمادين جداً . فاحمدى الله تعالى على أن رزقك زوجا يحرص أن يصونك من التردى فى الهاوية التى يتردى فيها سواك . واحذرى أن تقبلى ذلك مكرهة غير مطمئنة النفس :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموكَ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرَجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليما » « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وهذه رسالة من الأخ العزيز السيد عزت عزيزى يقول فيها :

لقد عودتنا مجلتكم الحبيبة أن تعرض دائما لأهم ما يواجه العالم الإسلامى . والوحدة الإسلامية حلم زاود أذهان المسلمين وما زال يراودها ، ودعاة الفكرة الإسلامية دائبون على العمل لتحقيق ذلك الحلم الجميل و « المسلمون » من رواد هذه الدعوة المباركة .

لذلك سرنا أن بدأ الأستاذ محمد أبو زهرة بحثه القيم عن الجامعة الإسلامية ، فتابعناه باهتمام ، غير أنى وقفت عند رأى له فى هذه الجامعة إذ يقول بالعدد الأول من هذه السنة « على أننا لا نطالب بقيام دولة إسلامية بمعنى حكومة إسلامية واحدة ! بل نطالب بقيام وحدة إسلامية » . ويكرر الأستاذ هذا المعنى فى العدد الثانى « فهو لا يريد أن يكون شكل الحكم واحداً فى الأقاليم الإسلامية ولا يريد صهر الأقاليم الإسلامية فى بوتقة واحدة » لكنه مع هذا « يريد وحدة الدول الإسلامية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً ، وأن تحكم كلها بالإسلام حكما كاملا » . فما معنى الوحدة إذن من غير وحدة الدولة وكيف يتسنى لنا أن ندع كل رقعة من الوطن الإسلامى تحكم نفسها كما تشاء ثم نقول إننا نريد أن يحكمها كلها الإسلام وحكم الإسلام واحد فى كل قطر وفى كل زمن ؟ .



ويخشى الأستاذ أن تقع التفرقة والتفكك فى الدولة الواحدة الكبيرة إذ يسهل على الولاة الاستقلال بأقطارهم كما حدث فى الدولة العباسية وما بعدها . إلا أن الأستاذ نفسه يبين علة ذلك بأنه إما من ضعف الخلفاء أو استبداد الملوك . فلماذا لا نطلب إذن بتقوية جهاز الحكومة المركزية — الخلافة — وإشراك الأقطار الإسلامية واتساع المجال لها كى تشترك بالحكم وبذلك ينتفى الضعف والاستبداد . ومع هذا فإن خروج دول من حلف أو اتحاد أسهل من استقلال وال بولايته أو حاكم بمقاطعته سيما إن وجدت الدولة القوية العادلة التى تحاسب الجميع . وختاماً أرى أن الخليفة الواحد بالدولة الإسلامية من أعظم مظاهر وحدتها ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » . « رواه مسلم » ويقول أيضاً من حديث يرويه الشيخان : « وستكون خلفاء فتكثر قالوا فما تأمرنا ؟ قال : وفوا ببيعة الأول » .

من أجل هذا كله قام فى نفسى شىء من الجامعة الإسلامية على هذا المعنى الذى أراده فضيلة الأستاذ وأكون شاكراً لو تكرم بإزالة ما علق بنفسى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

والمسلمون تشكر للأخ عزت ملاحظته الواعية ، وتتشرف بها برد فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة عليها :

١ — قرأت تعليق الأستاذ عزت عزيزى على كلامنا فى الجامعة الإسلامية ، وقد قلنا إننا الآن فى أشد الحاجة إلى الجامعة الإسلامية ، وقصرت دعوتى على الجامعة وحدها ، ونفيت أن يكون مطلبى الآن الدولة الإسلامية ؛ وليس معنى ذلك أنى أطالب بمنعها ، ففرق بين المطالبة بمنعها والمطالبة بالاقتصار على المطلب القريب ، والهدف الواضح ، وإنى إذ أوافق الأستاذ على أن الوحدة الإسلامية التى تكون لها رياسة واحدة هى المطلب الأسمى ؛ وهى التى دعا إليها النبى صلى الله عليه وسلم ، وثبتت دعوته إليها فى الصحيح المأثور عنه صلى الله عليه وسلم — أصرُّ على أن يكون الهدف المقصود الآن تحقيق الجامعة الإسلامية بالمعنى العام ، لا بالمعنى الأخص ؛ وليعلم الكاتب الفاضل أن الخلافة بمعناها الأخص لا يمكن تحققها من غير تحقق الجامعة الإسلامية أولاً — فهى السبيل لتحققها ؛ وإن الحكمة العملية ، والسياسة المنتجة توجب أن نتجه إلى الجامعة الإسلامية بالمعنى العام أولاً — ولا نريد اسماً لا مسمى له ، ولا مظهراً لا حقيقة له . لقد كان عندنا قبل الحرب العالمية الأولى اسم الخلافة الإسلامية ، ولم تكن الجامعة الإسلامية ، بل كان المسلمون بدولهم وآحادهم نهباً مقسوماً للدول الاستعمارية مع وجود اسم الخلافة ، إننا نريد المعنى أولا ، فإن تحقق ، اخترنا الشكل بعد ذلك ، ونريد الحقيقة ، فإن ثبتت اخترنا لها المظهر الذى نريده ، وفى هذه الحال نطبق الأحاديث النبوية بشكل يتفق مع الحقيقة ، ويكون ملائماً لروح العصر ، ولطبيعة الأقاليم الإسلامية وتباعد أجزائها ، واختلاف عادات أهلها .

٢ — إن المسلمين الآن موزعون فى الأرض من أقصى الصين إلى أقصى المغرب ، ومن شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها ، ونريد لهم وحدة ، فما السبيل إلى تحقيقها الآن بغير الجامعة الإسلامية ؟ إن المسلمين الآن دول مختلفة بعضها محكوم حكما استبدادياً

وبعضها محكوم حكماً ملكياً غير مقيد ، وبعضها محكوم حكماً ملكياً مقيداً فى الظاهر وغير مقيد فى الحقيقة ، وبعضها محكوم بحكم جمهورى حقيقة ومظهراً ، وبعضها محكوم بحكم جمهورى مظهراً ، وهو فى الحقيقة حكم الفرد بأدق معانيه ، وهكذا — فإن قلنا فى دعوتنا من الآن بالدولة الواحدة ، كانت ممارضات ومقاومات من الذين سيذهب الاندماجُ الموَحِّدُ فى دولة بسلطانهم ، فيكون النزاع بين دعاة الاندماج والمانعين ؛ ومع النزاع فى الإنشاء لا يمكن الإيجاد ، بل بثور جدل «بيزنطى» لا يقرب غاية ، ولا يحقق مرجواً ، وعيبنا أننا نثير الجدل بطلب المثل العليا قولا ، لنقف فى سبيل كل دعوة عملية ، مع أنها هى السبيل لتحقيق المثل العليا .

٣ — إن الجامعة الإسلامية تكون بتوحيد المسلمين اقتصادياً ، بحيث يتكون من العالم الإسلامى الحر كتلة اقتصادية يتحقق فيها الاكتفاء الذاتى ، ويتكون لنا استقلال اقتصادى نستطيع فى ظله أن ننفذ أحكام القرآن .

ويكون مع التوحيد الاقتصادى التوحيد السياسى ، بحيث تكون الجماعة الإسلامية كلها يداً على من سواهم ، فلا تكون واحدة منها منتمية لمسكر سياسى ، وأخرى لمناقضه ، وتكون الجماعات الإسلامية فى ذيل غير المسلمين ، ويحارب المسلمون بعضهم بعضاً لنصرة تلك المسكرات التى لا تريد بالإسلام خيراً .

ونريد مع هذين وحدة ثقافية جامعة ، نحيى بها مآثر المسلمين ، ونقيم دعائم العلم الإسلامى ، وننشر المقبور منه .

ونريد مع كل هذا وحدة لغوية ، فتكون لغة القرآن هى اللغة الجامعة الرابطة بين المسلمين .

٤ — إذا تحققت هذه المعانى ، وهى ما أرجو تحقيقه ، وظواهر الأمور تدل على أن ذلك قريب لو صحت العزائم ، فباكستان تريد إحياء اللغة العربية فيها لتكون لغتها السائدة ، والدول العربية قد تلاقت سياسياً فى الجملة ويعاضدها فى سياستها أكثر الدول الإسلامية ! . والاقتصاد الإسلامى يتنادى به المسلمون ، فلم يبق إلا العمل ، وإن تحقق ذلك بعون الله وتوفيقه ، فإنى أرجو الأستاذ عزت عزيزى أن يتولى الدعوة إلى الخلافة الموحدة ، ولكن بعد أن تتوطد أركان الجامعة الإسلامية ، وترسو قواعدها ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

باب الكتب : نقد وتعريف

١ — أبو الحسن الأشعرى ، للأستاذ الدكتور حموده غرابه
المدرس بكلية أصول الدين بالأزهر ، ٢٠٠ صفحة ،
نشر مكتبة الخانجى بمصر ، ديسمبر سنة ١٩٥٣ .

هذا بحث ممتاز صدر عن متخصص فى موضوعه ، وهو تلميذنا بالأمس وزميلنا اليوم الأستاذ الدكتور « حموده غرابه » . فقد نال أكبر الدرجات العلمية من الأزهر : العالمية من درجة أستاذ فى الفلسفة وعلم الكلام ، ثم أوفد فى بعثة إلى إنجلترا لحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة « كمبردج » ، وهو الآن مدرس الفلسفة وعلم الكلام بكلية أصول الدين بالأزهر .

هذا ولعلنا نقرر الحقيقة إذا قلنا بأن كثيرا من فلاسفة الإسلام ومفكريه لا يزالون فى حاجة شديدة إلى من يجلِّيهم : فى أنفسهم ، وفى مذاهبهم التى تنسب إليهم ، وفى المنهج الذى اصطنعه كل منهم فى تفكيره ، ثم فى مقدار تأثرهم بمن سبقوهم وتأثيرهم فيمن جاءوا بعدهم .

وهذا عمل يحتاج إلى تضافر الجهود ، كما يحتاج من يقوم به فى دائرة تخصصه إلى بحث وتنقيب ، وإلى عقل نافذ قادر على البحث العلمى الصحيح وعلى الموازنة والمقارنة والحكم . كما يحتاج هذا العمل ، مع ذلك كله ، إلى رغبة فى الوصول للحق وحده وإن خالف قليلا أو كثيراً مما يراه السابقون .

وقد قصرنا ، نحن المشتغلين بالتفكير الإسلامى وأمواجه ورجالاته ، كثيرا فى هذه الناحية ، حتى لقد سبقنا فيها المستشرقون ! لذلك نفرح كثيرا كلما ظهر فى هذا الميدان بحث علمى يصح أن نحتفل به . ونعتقد أن البحث الذى بين أيدينا عن الإمام أبى الحسن الأشعرى من هذا النوع الذى نرغبه ؛ وذلك لصدوره عن متخصص فى هذا الموضوع ، وقد تهيأ له بدراسة عميقة لعلم الكلام ، ثم بما ظفر به من أدوات البحث العلمى الصحيح .

والكتاب ثلاثة فصول ، تكلم فى أولها عن نشأة الفرق المختلفة فى الإسلام ، وفى ثانيها عن الأشعرى نفسه : حياته ومؤلفاته ومنهجه ومذهبه ، وفى الثالث عن الأشعرى ومعارضيه من الفلاسفة ورجال الكلام . وكنا نود أن يضم لهذه الفصول الثلاثة ، فصلا آخر عن أثره فى الفلسفة وعلم الكلام على ممر العصور حتى اليوم ، وإن كان قد تعرض لشىء من ذلك فى تضاعيف البحث .

والقارئ للكتاب يلمس فيه ، من أوله إلى آخره ، شخصية الكاتب التى لم تنمح فى غيره من الذين تناولوا الأشعرى بالكتابة والبحث ، سواء فى ذلك المسلمون والمستشرقون ، وتلك مزية طبيعية نعرفها فيه منذ كان « طالب علم » بكلية أصول الدين . كما نلمس أيضاً حدة فى مزاجه فى نقد مالا يراه من آراء الغير ، وفى الطريقة التى بها يدعم رأيه ويدافع عنه بحق .

إنه فى الفصل الأول (ص١٥ وما بعدها) يدحض رأى المستشرقين حين يزعمون أن رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن عامة ، كما يبين بيانا شافياً بعض ما امتاز به الإسلام من خصائص ، ردا على ما زعمه « فنسنك » الذى يرى أن الإسلام ليس له خصائص ذاتية تميزه كدين عن اليهودية والنصرانية (ص ٢٠) . كما يرد بقوة فى الفصل الثانى (ص ٧٣ وما بعدها) على ما يرجحه « فنسنك » أيضاً من تناقض الأشعرى وأنه كان ذا وجهين .

وفى هذا الفصل الثانى أيضاً ، نراه يخطىء المستشرقين عامة فى اعتمادهم فى تصوير مذهب الأشعرى وفهمه على كتاب « الإبانة » وحده ، فقادهم ذلك إلى نتائج علمية أصبحت الآن فى أشد الحاجة إلى المناقشة (ص ١٣٢ — ١٣٣) . ثم أخذ بعد هذا فى تفصيل هذا الإجمال ، وفى التدليل على ما ذهب إليه فى الحكم على هؤلاء المستشرقين .

فإذا ما انتهى القارئ من هذين الفصلين ، يجد نفسه قد انتهى إلى الفصل الأخير ، وهو فى رأيى أهم ما فى الكتاب لما فيه من موازنات ومقارنات . فهو يتكلم (ص ١٣٧ وما بعدها) عن « المنهج » بين الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة ، ثم عن المسائل التى اختلف فيها الأشعرى والأشاعرة مع أرسطو ، وذلك ليصل إلى

اختلافه مع المعتزلة فى صفات الله تعالى ، وهكذا يستعرض فى هذا الفصل الممتع القوى سائر وجوه الخلاف الهامة بين مؤسس المذهب ومعارضيه على اختلاف ألوانهم .

إلى هنا ، نجد الدكتور « حموده » قد وفى تماما بما نصب نفسه لبحثه ، معتمدا على كتابات الأشعرى نفسه أولاً قبل غيرها ، دون أن يهمل الرجوع لغيرها من المراجع الأصيلة فى المسائل التى عالجها كما ينبغى علميا .

ولكن ، ويظهر أن هذا حرف لابد منه فى التعريف بأى عمل علمى ونقده ، يبدو للقارئ أن هذا العمل العلمى كان يكون أكمل لو برئ صاحبه من ملاحظات قد لا تتصل بالموضوع أو المنهج ، ولكنها مآخذ يجب ألا تمر بلا حساب .

نشير أولا إلى إهماله مراجع البحث فى كثير من الموضوعات وهو يتكلم عن الفرق الإسلامية (ص ٣٦ وما بعدها) ، وعن سبب تحول الأشعرى إلى مذهب أهل السنة (ص ٦١ — ٦٢) وعن غير ذلك من المسائل التى تعرض لها فى بحثه .

ثم ، نراه قد اضطر لإيراد أسماء كثيرين من المستشرقين ، ومن هذه الأسماء مالا يعرفها القارئ العربى الذى لا يعرف لغة أجنبية ، فكان الواجب أن يكتب هذه الأسماء بالحروف اللاتينية مع كتابة عناوين مؤلفات هؤلاء الأجانب بلغاتها الأصلية ، وهذا وذاك مالم يفعله .

وهناك بعد ذلك ، أحكام — وهى قليلة بحمد الله — قد أرسلها إرسالا دون حجج تؤيدها ، وهذا مثل قوله (ص ٨٦ وهو يذكر أن كثيراً من المعتزلة كانوا فسقة) : « والسلوك الطيب فى الحياة أثر من آثار القلوب العامرة بالعواطف النبيلة ، وليس أثراً من آثار العقول الكبيرة المملوءة بالأفكار والفلسفة » ! ونظن أنه لا حاجة بنا لضرب الأمثال بكثير من المفكرين والفلاسفة أصحاب الأخلاق الطيبة والسلوك الحميد .

وأخيرا ، لقد أهمل إهمالا شنيعاً علامات الترقيم ، مع أنها لابد منها لفهم ما يريده الكاتب ، ومع أن كل ما قرأه بالإنجليزية من الكتابات لا يمكن أن يكون فيها هذا الإهمال من كاتبيها ! ثم ، كنت أود ألا يقع فى استعمال كلمة « إمكانيات »

(ص ٧٤) فهى كلمة وافدة على مصر من بعض الأقطار الشرقية فى هذه الأيام الأخيرة ، ومن اليسير أن نستعمل بدلها كلمة « طاقة » التى تفيد معناها تماما وقد جاء بها القرآن الـكريم .

وبعد ! لن يسلم كتاب يكتبه بشر من أمثال هذه الملاحظات ، ومن حقنا أن نغتبط كثيرا بهذا البحث العلمى الجيد من كل نواحيه ، والذى حقق ما قصده مؤلفه من إعطاء صورة صادقة عن الأشعرى ومذهبه ، وتصحيح ما وقع فيه المستشرقون من أخطاء فى فهم مؤسس مذهب أهل السنة . ونرجو للكاتب المزيد من التوفيق فى البحوث العلمية ، فهو حرى بأن تتقدم به وبأمثاله من شباب الأزهر « العلماء الأحياء » الدراسات الإسلامية بعامة ، ودراسات فلاسفة الإسلام ومفكريه بخاصة .

الدكتور محمد يوسف موسى



امتحان

امتحن أمير عربى ولده ليرى إذا كان يصلح للحكم بعده فسأله : إذا أتاك خصمان فـكيف تقضى بينهما ؟ فقال الولد : آخذ من مال الجيد وأعطى الردىء حتى يرضى فإن خيار الناس يتحملون الخسارة لأجل السلام العام .

فقال الوالد : هب أن كلا منهما ردىء ؟

فقال : أعطيهما من مالى حتى يرضيا .

قال : فإن كانا جميعا صالحين ؟

قال : الصالحان لا يأتيان إلى القضاة ، بل يحكمان العقل بينهما .

فسر الأمير بابنه ، وعلم أنه أهل للقضاء بعده .

إن لبدنك عليك حقاً

بإشراف اللواء الدكتور أحمد الناقه

س ١ : سحابة كثيفة تعوق البصر . لم يفلح فيها علاج .

ج ١ : يمكن علاجها بترقيع القرنية من عين إنسان آخر بعد وفاته .

* * *

س ٢ : كثير الاحتلام بالليل . يخشى المرض وضعف الباءة عند الزواج .

ج ٢ : الاحتلام الكثير دليل القوة الدافقة والعفة اللائقة بالمسلم ، فالحمد لله الذى أسبغ الصحة وأفرغ الفضيلة . تزوج فلا بأس عليك .

* * *

س ٣ : ضاقت بكثرة ما يخرجه الزوج من الغازات .

ج ٣ : أعدى له طعاما خاليا من الخضر النيئة ؛ وأعطيه أقراص الفحم .

* * *

س ٤ : حامل فى الشهر الثالث . يريدون أن يجهضوها لمرض القلب وهى تأبى الإجهاض . الموت عندها أهون من الهم وقلة الخلف .

ج ٤ : إذا لم يكن بالقلب هبوط شديد يستعصى على العلاج المناسب والراحة التامة ، فاستمرار الحمل خير وأسلم عاقبة من الإجهاض .

* * *

س ٥ : جدته مريضة بالسكر والقلب ولكنها دائمة الحركة رغم نصح الأطباء لها بالراحة .

ج ٥ : مادامت تلزم الأغذية والأدوية المناسبة فدعها تتحرك على قدر طاقتها فربما كانت الحركة أجدى عليها عن السكون .

* * *

س ٦ : مازال بدينا برغم الإقلال من الدهنيات والنشويات .

ج ٦ : قلل ملح الطعام وشرب السوائل ، واقنع فى الفطور والعشاء بكوب من اللبن ، وواظب على ذلك شهورا .

* * *

س ٧ : ضعيف من قلة الغذاء . قيل له اللحم أنفع من الدواء . لا يجد ماينفق .

ج ٧ : أحل لكم صيد البر والبحر . وفى البيض والجبن واللبن والعدس والفول والبقول وبعض الخضر ما يغنى عن اللحم .

* * *

س ٨ : تاجر يصاب بنوبة ربو شديدة عند الغضب والغم والهم مع أنه لا ينقطع عن دواء الأطباء .

ج ٨ : لا تغضب ، واصبر على ما أصابك ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . فذلك هو الدواء الشافى .

* * *

س ٩ : يشعر بالصداع والأرق وسوء الهضم والفتور مع أنه ميسر الرزق لا يعمل ، سليم الجسم لا يمرض ، ولا تنفعه العقاقير .

ج ٩ : هذه أعراض الفراغ والأثرة وقصر الفكر على سلامة البدن وهوى النفس . فاخرج من ضيق نفسك إلى سعة الحياة ؛ فاملأ فراغك بالعمل ، وفكرك بما ينفع الناس ، ونفسك بالبر والمعروف ، وروحك بالإيمان والتقوى تجد الصحة والعافية .

مع العارفين

صالح المرى

[ليس صالح قاصا ، إنه نذير قوم]

« سفيان الثورى »

قال الحسن :

« كنا يوما عند صالح المرى ، وهو يتكلم ويعظ ، فقال لرجل حدث بين يديه ـ اقرأ يا بنىّ ، فقرأ الرجل « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » فقطع عليه صالح القراءة وقال « وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب له رب العالمين ؟ ! إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصى يساقون فى السلاسل والأغلال إلى الجحيم ، حفاة عراة مسودة وجوههم ، مزرقة عيونهم ، ذائبة أجسامهم ، ينادون يا ويلاه ! يا ثبوراه ! ماذا نزل بنا ؟ ماذا حل بنا ؟ أين يذهب بنا ؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران ، فمرة يجرُّون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين ، ومرة يقادون إليهـا عنتا مقرنين ، من بين باك وما بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت . إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرا لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك ولا يستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك . . . » ثم قال « ياسوء متقلباه ! وبكى وبكى الناس ! فقام شاب فقال : أ كل هذا فى القيامة يا أبا بشر ! قال نعم ! والله يا ابن أخى وما هو أ كبر من ذلك ! ! لقد بلغنى أنهم يصرخون فى النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منها إلا كهيئة الأنين من المدنف . . . فصاح الفتى : إنا لله ! واغفلتاه عن نفسى أيام الحياة . . . واأسفاه على تضييع عمرى فى دار الدنيا ! ثم بكى واستقبل القبلة ثم قال — اللهم إنى أستقبلك فى يومى هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك ، اللهم فاقبلنى على ما كان منى واعف عما تقدم من عملى وأقل عثرتى وارحمنى ومن حضرنى ، يا أرحم الراحمين ، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقى ، وإليك أنبت بجميع جوارحى صادقا بذلك قلبى ، والويل لى إن أنت لم تقبلنى . . . ثم غاب

فسقط منشيا عليه ، فحمل من بين القوم صريعا يبكون عليه ويدعون له . وكان صالح كثيراً ما يذكره فى مجلسه يدعو الله له ويقول : بأبى قتيل القرآن » ! !

* * *

هذا الضرب من التذكير قد يبدو نشازا بين أساليب عصرنا الحديث ، وهذا اللون من التأثر قد يبدو كذلك بعيدا ! وربما سهل على قارئ مثل هذه القصة أن يطوى صفحتها ويغلق كتابها ويقول « حديث خرافة ونسج خيال ، وما أحوج الدين إلى أن يبرأ من أمثال هذه الشطحات ! »

ونحن معه فى أن أكثر الكتب التى تناولت هذا النسق من القصص مملوءة بنسج الخيال ، ومعه فى أن الدين يجب أن يُبرَّأ من أمثال هذه الشطحات ، وليس يمنينا ثبوت قصة « أبى بشر » بقدر ما تمنينا النزعة النافرة المسرعة إلى تكذيبها دون تحرّ وروِيّة . . . ولا نحب أن نسميها نزعة مادية لأنها كثيرا مالا تكون كذلك . ولكنها نزعة متأثرة قليلا أو كثيراً بألوان الحياة التى نحياها ، متجهة مع تيارها تحاول تكييف الحقائق العليا والاتصال بها وهى مندفعة معه ، هذا إذا كانت الحقائق العليا تشغل بالها أو تخطر به ، وهنا تجد الحقائق محنتها الكبرى . . . المحنة التى تشوه معالمها وتظلمها ، فإن حقائق السماء يجب أن تؤخذ كما هى ، وشأنها دائما أن تؤثر ولا تتأثر ، فإذا أردناها على ما نحب نحن ، لا كما هى من ذاتها ، وإذا حاولنا إخضاعها لأساليب عصرنا ولم نخضع لأسلوبها هى ، فإن النتيجة التى لا بد منها هى أن نتقطع عنها لأنها عزيزة ترفض الشركة ، ويبقى مع ذلك واقعنا المختلط حجة عليها ، وهى بعيدة مظلومة ! ! خذ مثلا معنى الإيمان والاستقامة — آمن الأولون بالله واستقاموا ، وقلوبهم ملؤها الشوق إلى الجنة والخوف من النار ، وآيات القرآن تزكى الشوق وتؤجج الخوف ، وتذكر الجنة والنار على طول الكتاب وعرضه فى صور رائعة جميلة وقاسية رهيبة ، والقرآن كتاب كل عصر ، والإنسان هو الإنسان فى كل زمان . . . فإذا جاء زمان ظن فيه الناس أنهم بلغوا حدا من الفكر يحملهم فوق الشوق إلى الجنة والخوف من النار . وتأثر بذلك الدعاة فاستحوا أن يعرضوا لهذه المعانى التى أصبحت لغة الدراويش لا لغة أهل العصر ، فإن هذه هى الهوة التى تقوم بين هؤلاء الدعاة وبين الناس ، ثم بين الناس

وبين مايُدعون إليه ، فإن الله خلق الخلق وهو يعلم ما ينطوون عليه « ألاَ يعلم من خلق » ثم اقرأ بعدها « وهو اللطيف الخبير » ، وتأمل ذلك طويلا ، فهو حين رغّب فى الجنة ورهّب من النار إنما رغب ورهب أنفساً يعلم وحده ما برأها عليه من الرغبة والرهبة ، ويعلم وحده استمدادها للانطلاق بها إلى الخير أو إلى الشر . وترغيبه وترهيبه سبحانه قائم على حقيقتين كبيرتين كالليل والنهار ، هما الجنة والنار ، ليس بين الإنسان وبينهما إلا سكرات الموت وهو آتيه ، ثم القيامة وهى قريب !

إن العالم اليوم فزع من خطر الحرب ومن هولها حين تقوم . . . أينكر ذلك أحد ؟ أو ينكر أحد أن هذا الفزع مؤثر فى سياسات العالم كله ؟ أرأيت لو خافت الدنيا من النار خوفها من الحرب ، والنار أشد هولاً وعذابا ، أما كان ذلك أدعى أن تستقيم سياستها على ما تتقى به غضب الله وعذاب جهنم ؟ !

* * *

وقال عفان بن مسلم « كنا نأتى مجلس صالح المرى نحضره وهو يقص فكان إذا أخذ فى قصصه كأنه رجل مذعور يذعرك أمره من حزنه وكثرة بكائه . وكان شديد الخوف من الله كثير البكاء .

وروى بشر بن ميمون أنه سمع صالحا يقول « وكيف تقر بالدنيا عين من عرفها... خلفة الماضين ، وبقية المتقدمين ، رحلوا أنفسكم عنها قبل الرحيل فكأن الأمر قريب نزل بكم » ويسمعه أحمد بن إسحاق الحضرمى يتمثل بهذا البيت .

وغائب الموت لا ترجون رجعته إذا ذوو غيبة من سفرة رجعوا

ثم يبكى ويقول — هو والله السفر البعيد ، فتزودوا لمراحله (فإن خير الزاد التقوى) ، واعلموا أنكم فى مثل أمنيتهم فبادروا الموت واعملوا له قبل حلوله . . »

وقال سعيد بن عامر « كان صالح المرى يدعو : اللهم ارزقنا صبرا على طاعتك ، وارزقنا صبرا عند عزائم الأمور » .

وروى صالح عن الحوشب عن الحسن « تفقدوا الحلاوة فى ثلاث — فى الصلاة وفى القرآن وفى الذكر ، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا ، فإن لم تجدها فاعلم أن بابك مغلق » .

وحدث الأصمعى أنه شهد صالحا المرى يعزى رجلا فى أبيه فقال له « لئن كانت

مصيبتك لم تحدث لك موعظة فى نفسك ، لمصيبتك بأبيك أهون من مصيبتك فى نفسك ، فإياها فابك » .

***

وأسند صالح عن الحسن وثابت وقتادة وبكر بن عبد الله المزنى ومنصور بن زاذان وقيس بن سعد وجعفر بن زيد وميمون بن سياه وغيرهم .

قال صالح « سمعت الحسن يحدث عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل قال « أربع خصال ، واحدة فيما بينى وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادى ، وواحدة لى ، وواحدة لك . فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين عبادى ترضى لهم ما ترضى لنفسك » .

وروى عن جعفر بن زيد عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ! وإن خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ! »

وروى عن جعفر بن زيد وميمون بن سياه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض تنادى بعضها بعضا — ياجارة هل مر بك اليوم عبد صالح صلى عليك أو ذكر الله ؟ فإن قالت نعم رأت لها بذلك فضلا » .

وعن يزيد الرقاشى عن أنس أن الرسول قال « أربع من الشقاء — جمود العين وقسوة القلب والحرص وطول الأمل » .

وعن قيس بن سعد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه » .

ومن نفس الطريق عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سره أن يعلم ماله عند الله فليعلم ما لله عنده » .

وعن سعيد الجروى عن أبى عثمان النهدى عن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « إذا كانت أمراؤكم خياركم ، وكانت أغنياؤكم سمحاءكم ، وكان أمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كانت أمراؤكم شراركم ، وكانت أغنياؤكم بخلاءكم وكانت أموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

حقائق عن الإسلام

تميز طبيعته وتدفع الشبهات عنه

(٢) ...

٣ — منهاج حياة كامل :

إن الإسلام يشرع للبشرية كلها نظاما عادلا كاملا غير مسبوق ولا ملحوق . فهو فى الوقت الذى يرفع فيه روح الإنسان ويكرمه ، ويأخذه بمبادئ أخلاقية مثالية ، لا ينكر أثر الواقعيات المادية فى حياته ، ويضمن شرائعه مزاجا متناسقا من المعنويات والماديات ، ومن التوجيهات الروحية والضمانات القانونية .

ومن ثم فهو ليس مجرد ديانة ، كالمفهوم من المقابل الإنجليزى لكلمة ديانة . إنما هو منهاج كامل للحياة البشرية بكل مقوماتها ، فى عالم الروح أو فى عالم المادة ، وفى ضمير الفرد أو محيط الجماعة ، وفيما يختص بالمشاعر الفردية أو بنظام الحكم والدولة ، وفيما يتعلق بالعبادات أو المعاملات : اقتصادية كانت أم سياسية أم دولية .

واصطلاحات : الدين والدولة ، والعقيدة والسياسة . . وما إليها — كما هى عند الغربيين لا مدلول لها فى المعجم الإسلامى . فاصطلاح « الدين الإسلامى » يشمل هذه المصطلحات كلها غير منفكة ولا منفصلة ، والمسلم يؤدى صلاته فى المسجد ، ويصرف سلعته فى السوق ، ويقضى بين الخصوم فى المحكمة ، ويصرف أمور الدولة فى الديوان ، ويعقد المعاهدات والمواثيق مع الدول ، ويحارب باسم الحق والعدل فى الميدان ... كل أولئك بروح واحدة ، ووفق شريعة واحدة ، وبوحى عقيدة واحدة ، فى ظل نظام واحد . هو نظام الإسلام .

كل ما هنالك أن الإسلام يقيم هذا النظام الشامخ على أساس من العقيدة فى الله ، ويقيم الضمير المفعم بتقوى الله حارسا على التشريع والتنفيذ ، ويجعل صلة هذا الضمير بالله هى الضمانة الأولى لهذا النظام . . إن القوانين دائما يمكن الاحتيال عليها ، أما عين الله التى لا تنام فهى الحارس الذى لا يغفل ، ولا يجرؤ عليه محتال ! .

يقيم الإنسان نظامه على أساس من حساسية الضمير المراقب لله فى السر والعلن ، وعلى أساس آخر هو الضمانات الاجتماعية والاقتصادية الوقائية التى أسلفنا الإشارة إليها . ويعتمد على ذلك الضمير وعلى هذه الضمانات أكثر مما يعتمد على الحدود والعقوبات .

٤ — دفع شبهات :

ولكن الذين يجهلون حقيقة الإسلام ، يلقون بَالهم كله إلى الحدود والعقوبات ويمنحونها من الأهمية مالا يمنحها الإسلام ؛ فيحسن أن نعرض لها بشيء من البيان .

نأخذ مثلا حد السرقة :

إن كثيرين يشفقون من أن نصبح ونمسى — إذا نحن طبقنا النظام الإسلامى — فإذا عشرات الألوف من الذين يحكم عليهم فى جرائم السرقة مقطوعو الأيدى .

ولكن الإسلام غير ذلك ، فهو لا يأخذ الأمور جزافاً . ولقد أسلفنا بيان الضمانات الاقتصادية التى يكفلها الإسلام لكل من يظلهم لواؤه — مسلمين وغير مسلمين — فالآن نزيد أن الفرد الذى لا توفر له الدولة تلك الضمانات ، ولا تعطيه الجماعة ضرورياته الأولية ، يبيح له الإسلام أن يشهر السيف فى وجه من يحرمه هذه الضروريات ، ويبيح له أن يقاتل عليها ... فإذا هو لجأ إلى السرقة ورزقه مكفول وحاجاته مكفية فهدد الناس فى أموالهم وهدد الجماعة فى أمنها ، فنحن نعتقد أنه من العدل أن يقطع الإسلام يده بذات السيف الذى سلمه له ليقاتل به مانعه ! فأما حين يسرق وهناك شبهة من جوع أو من غيره فلا يقام عليه الحد بحكم النظريات التشريعية والسوابق القضائية فى الإسلام . وإذن فلن تقطع أيدى ألوف ولا مئات ولا عشرات . ولن يحد من هؤلاء السراق إلا من يسرق بلا شبهة ولا دافع ، وهم قليلون بل نادرون .

ولا ننسى أن الإسلام لا يرتكب غلطة القوانين الحديثة فى مطاردة السارق بعد قضاء العقوبة ، وحرمانه حق العمل الشريف حتى يضطر إلى العود مرة ومرة ، ولكنه يفتح باب التوبة على مصراعيه له ، فإن تاب قبله المجتمع الإسلامى فى

كنفه ، وييسر له وسائل العيش الشريفة وننسى لهزلته التي حدَّه عليها . كذلك يتكفل الإسلام بأطفال السارق المحدود وزوجته فلا يدعهم يشردون أو يتسولون كما تصنع قوانين الحضارة الحديثة ! !

كذلك نأخذ حد الزنا :

إن كثيرين يشفقون من أن نصبح ونمسى — إذا نحن طبقنا النظام الإسلامى — فإذا عشرات الألوف ممن يرتكبون جريمة الزنا اليوم مرجومون إن كانوا محصنين أو مجلودون مائة جلدة .

ولكن الإسلام غير ذلك . فهو لا يأخذ الأمور جزافا . إنما يزنى الزناة اليوم بهذه الكثرة الفاحشة لأنهم نتاج مجتمع فاسد مختل ، بعيد كل البعد عن طبيعة المجتمع الإسلامى . والإسلام كل لا يتجزأ ، ولا بد من إقامة مجتمع إسلامى سليم قبل تنفيذ حدود الإسلام .

ولقد أسلفنا أن الإسلام يكفل العمل لكل قادر ، فإذا لم يوفر له العمل تكفل له بالرزق من بيت المال ، وكذلك يتكفل له بالمونة إذا أراد زوجة لتلبية حاجته الفطرية ، ولكف نفسه عن الشهوة المحرمة . وهكذا نجد أن الإسلام يزيل العقبات المانعة من النكاح الحلال ويقيم مجتمعه على هذا الأساس . فالآن نزيد أن الإسلام ينشىء مجتمعا نظيفاً ، يأخذ كل فرد فيه بالتهذيب الخلق والتربية الوجدانية ، ثم يمنع مثيرات الشهوة من الخمر والعرى والاختلاط الجنسى الفاجر ، والأفلام الداعرة ، والأغانى الخليعة .

ثم إنه يبيح تعدد الزوجات لمن لا يجدون فى زوجاتهم الكفاية من أى جانب ، بشرط الحاجة إلى ذلك والعدل الكامل بينهن ، كما يبيح الطلاق لمن فسدت حياتهم الزوجية فسادا عجزت معه محاولات التوفيق بين الزوج والزوجة ، وهذا وذلك بدلا من اتخاذ الخليلات غير الشرعيات كما يقع فى المجتمعات غير الإسلامية .

وبذلك تنتفى الأسباب الطبيعية للجريمة ، والدوافع التى تنتج هـذه الكثرة المخيفة فى المجتمعات التى لا تهتدى بهدى الإسلام .

ثم يضاف إلى هذا كله اعتبار آخر هو أن العقوبة فى الحقيقة إنما أريد بها أن تكون عقوبة مانعة لا واقعة . لأن إثبات الجريمة عسير ، لاشتراط أربعة شهود ، يرون الفعل ، شهود رؤية لا مجال للشك فيها . وهو مالا يتيسر عادة . ولكن قسوة العقوبة مانعة للفعل ، رادعة عنه قبل ارتكابه .

كذلك يتحدث بعضهم عن مسألة تحريم الربا ، وعن مسألة الأقليات فى ظل الحكم الإسلامى :

وما من شك أن الإسلام يحرم المعاملات الربوية تحريما باتا جازما لا شبهة فيه . ذلك أنه أراد وقاية البشرية من الثمرات المرة التى تتجرعها اليوم من آثار النظام الربوى ، الذى قامت عليه اقتصادياتها فى القرون الخمسة الأخيرة منذ بروز العهد الرأسمالى .

إن النظام الربوى نظام يصطدم بفكرة التكافل الاجتماعى التى يقيم عليها الإسلام نظامه الاجتماعى . فالمال إما أن يستخدمه صاحبه فى الإنتاج عن الطريق الفردى ، أو عن طريق الشركات . وإما أن يقرض ما يفيض منه لأخيه فى الإنسانية قرضا حسنا ، ليأكل منه أو يتخذه للإنتاج . وهذا ما يتفق مع مبدأ التكافل الاجتماعى.

والنظام الربوى يظلم المنتج العامل فى المال ، لأنه يجعله دائما فى وضع أضعف من وضع صاحب رأس المال . فصاحب المال يربح دائما فى جميع عمليات الإقراض ربحا مضمونا والمقترض يربح ويخسر . . وبعملية رياضية تبين أنه بعد عدد كاف من مرات التعامل على هذا الأساس يصبح الربح كله للمرابى ، ويذهب جهد المنتج بلا جزاء . وتكون النتيجة هى تكدس رؤوس الأموال فى أيدى قلة من المرابين ، وتجريد معظم سكان العالم منه ، وجعلهم مجرد أجراء للمرابين ! .

وفى خلال القرون الخمسة الماضية كادت تتحقق هذه النتيجة المروعة ، والأموال فى طريقها إلى خزائن المرابين القلائل فى العالم كله . وما لم تحطم البشرية هذا النظام الفاسد الظالم ؛ فإنه سيأكلها أكلا ، ويقدمها للمرابين العالميين لقمة سائغة . وهذا ما أراد الإسلام أن يحطمه منذ نيف وثلاثة عشر قرنا ، قبل أن تنتبه البشرية إلى هذه الأخطار .

ولا نتحدث عن الحروب الاستعمارية الناشئة من النظام الربوى ، ولا عن الخراب والدمار الذى يهدد العالم من حروب رأس المال . فحسبنا تلك الإشارات .

أما القول بأن النظام الربوى ضربة لازب ، وضرورة لا معدى عنها للاقتصاد العالمى فهو قول لم يعد مسلما حتى عند الذين ابتدعوا النظام الربوى الحالى . إن الكتلة الشيوعية قد حطمت هذا الأساس ، كما أن ألمانيا كانت آخذة فى الاستغناء عنه قبل هزيمتها فى الحرب الأخيرة . وهو لا يسلم من النقد من بعض علماء الاقتصاد أمثال هيكس وشاكل وهارود .

وحين يصح العزم على إنقاذ البشرية من تلك اللعنة لن يجد الاقتصاديون استحالة فى إقامة الاقتصاد العالمى على أساس آخر ، يجعل الصلة مباشرة بين أصحاب المال والقادرين على الإنتاج ، عن طريق الشركات مباشرة ، مع استبعاد الوسيط — وهو المصارف — وجميع العمليات المالية القابلة للربح والخسارة ، وليست فيها فائدة ثابتة هى عمليات غير ربوية يقرها الإسلام . وفى السبيل إلى إقامة هذا النظام الاقتصادى السليم الخالى من ظلم الربا لا يمنع الإسلام أن تكون هناك فترة الانتقال اللازمة التى يهيأ فيها أساسه ومقتضياته لأن الإسلام يرفض دائما أن يؤدى القضاء على المنكر إلى فتنة أشد نكرا .

فأما مسألة الأقليات فقد حلها الإسلام منذ نيف وألف وثلثمائة عام . ولقد أسلفنا أن الإسلام حطم التعصب الدينى ، وفرض على المسلمين حماية حرية الاعتقاد وحرية العبادة للأقليات فى الوطن الإسلامى . وأقام بذلك مجتمعا عالميا مفتوحا لكافة العقائد ولكافة الأجناس والعناصر . يدين فيه الجميع بمعتقداتهم دون إكراه ، ويزاولون مايسمى اليوم « بالأحوال الشخصية » وفق عقائدهم ، ويتحاكمون فيها إلى كتابهم — إذا شاءوا — أو يتحاكمون مختارين إلى الشريعة الإسلامية حين يرونها أوفق لمصالحهم . والذى حدث أن الكثرة منهم اعتادت التحاكم إلى شريعة الإسلام وبخاصة فى الميراث .

وتبقى المعاملات . وهذه ليس للمسيحية فيها نصوص . كذلك كان الأخذ

بما تراه الأغلبية فى مصلحتها واجبا : يأخذه المسلمون على أنه دين ويأخذه غيرهم على أنه قانون .

ولعله من الخير لهم أن يأخذه المسلمون على أنه دين ، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل فى تنفيذه ، وعين الله الساهرة ترقبهم ، لا رهبة الحاكم التى يمكن التخلص منها فى كثير من الأحيان .

* * *

وبعد فهذا بيان إجمالى للأسس الإسلامية ، التى يعمل الإخوان المسلمون لإقامتها فى الوطن الإسلامى . غير متقيدين بالحدود القومية والجغرافية ؛ فالوطن الإسلامى كله وحدة فى نظر الإسلام .

والواقع أن الإخوان المسلمين لم يعودوا هيئة محلية فى مصر أو فى غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى ؛ إنما أصبحوا عنوان فكرة : فكرة الإحياء الإسلامى العام ، وإعادة الإسلام للعمل فى الأرض على هذه الأسس التى قام عليها بناؤه من أول يوم ، على يدى محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .

الفتوح الإسلامية

لم تكن الفتوح الإسلامية فتوح استعمار وجباية ، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحاً فى العقيدة للتوحيد والإيمان ، وفتوحاً فى الشريعة للحق والعقل ، وفتوحاً فى السياسة للإحسان والعدل ، وفتوحاً فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحاً فى العلم للإحياء والتجديد ، وفتوحاً فى الفن للابتكار والطرافة .

« أحمد حسن الزيات »

في أفق العالم الإسلامي

* رحلة فضيلة المرشد

رحلة المرشد العام :

انتهت رحلة فضيلة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين للأقطار العربية ، وعاد فضيلته فى رعاية الله إلى الديار المصرية موفور الصحة والعافية .

وفيما عدا رحلات الإمام الشهيد رضوان الله عليه إلى الحجاز وزيارته الخاطفة لدمشق وغزة ، يمكن أن تعتبر رحلة المرشد العام خطوة جديدة فى نشاط حركة الاخوان ، فإنه على رغم الصلات الوثيقة التى تربط المركز العام بالقاهرة بمراكز الاخوان وبالجماعات الإسلامية فى الأقطار المختلفة ، والرحلات الكثيرة التى يقوم بها مندوبو المركز العام فى هذه الأقطار ، فإن الحاجة كانت شديدة إلى أن تنتقل قيادة الدعوة بنفسها إلى كل قطر ، وهذا الانتقال يفيد من نواح عدة :—

أولاها : دراسة أوضاع كل قطر عن كثب ، وتذوق أجوائها مباشرة فإن العالم الإسلامى بأوضاعه القائمة وظروفه الراهنة لم يكتب بعد فى كتاب ، ولابد لدراسته من التنقل فى أجزائه والاتصال بأهلها .

وثانيها :الاتصال المباشر بالعاملين للاسلام فى كل بلد ، فإن الآصرة التى يعقدها اللقاء أوثق دائما من غيرها ، وقد يقطع المتلاقون باللقاء مسافة فى التجاوب والتفاهم لاتقطعها المراسلة فى سنين .

وثالثها : أن النفس الإنسانية مهما أوتيت من قوة الإيمان وفقه الإسلام تحتاج دائما إلى مدد من الواقع يقوى أيمانها ويزيد فهمها ، ويجعلها تلمس أثر الإسلام فى كل مكان ، ومكامن القوة فى المسلمين ، ومواطن الضعف فيهم كذلك ، ومثل هذه الزيارة بما تحمله من مكانة الزائر الكبير واهتمام الناس به تكشف ذلك كله على نطاق واسع .

ورابعها : أن عالمية الرسالة وإن كانت قاعدة نؤمن بها ولا نختلف عليها إلا أن توزيع الجهود عمليا بين حاجات مصر وحاجات الأقطار المختلفة كان يخضع فى الأغلب لجو مصر المحيط بالمركز العام ، والحجة فى ذلك ولاشك واضحة وهى تقوية المركز وتوطيد الأساس وحدود الطاقة ولكن مثل هذه الرحلة سيكون لها من غير شك أثرها فى تقوية الإحساس بحاجات هذه الأقطار وآلامها وآمالها وبالثروة الكريمة التى تضمها الحركة الإسلامية فيها ، وقوة هذا الإحساس كفيلة — بتوفيق الله — أن تبعث الهمة وتزيد الطاقة وتجعل عالمية الدعوة تخطو خطوة عملية جديدة فى تصور مشا كل الأقطار المختلفة وفى توزيع الجهود بينها توزيعاً عادلا لا يظلم فيه الأساس ولا تغفل فيه شتى المراكز والفروع .

والحقيقة أننا فى حاجة إلى أن ننظر إلى أوضاعنا دائما من قمة عالية ، وإلى أن تتضح أمامنا (خريطة) العالم الإسلامى حين نرسم سياستنا فى أى قطر من أقطاره ، فان الوحدة الحقيقية التى تربط هذه الأقطار تفرض ذلك ، ثم إن المؤامرة المحيطة بها جميعها تصدر فى كل مظاهرها وألوانها

عن خطة واحدة ، وتوزع ضرباتها توزيعاً منتظماً يستفيد من كل تجربة وينتهز كل سانحة ، وإن سبعين مليونا من العرب تجمعهم كلهم فى منهج السياسة الاستعمارية كلمتان : « الشرق الأوسط » بل لقد صارحنى بعض الساسة الأمريكيين أن « الشرق الأوسط » يعنى عندهم فى الحقيقة سائر الأقطار الإسلامية إلى أندونيسيا ، وهذا يكشف لك عن طبيعة التفكير الذى يوجه السياسة الأمريكية .

فعلى المسلمين وهم يواجهون هذه المؤامرة — العالمية — أن يواجهوها كلا لايتجزأ وأن يفتحوا لها عينا فى كل ناحية ، فإن ذلك أعون لهم على فهم اتجاهاتها ، ويجعلهم أقدر على شل قواها .

وخامسها : أن حركة الإخوان وإن اختلف الناس فى اعتبارها النبع الذى صدر عنه هذا الوعى الإسلامى فى العالم كله فإنهم لا يختلفون فى أنها كبرى الحركات القائمة وأرسخها أساسا وأوسعها تجربة ، وفى أنها أصبحت الأمل المرموق للمسلمين جميعاً ، ومن حق المسلمين على الإخوان أن يتلقوا عنهم ثمرة تجربتهم وعصارة وعيهم والإشراقة الكريمة التى زكتها عناية الله والأحداث فيهم ، وقيادة الإخوان هى الأمينة على ذلك كله ، وذات الكلمة المسموعة فيه .

والناحية السادسة والأخيرة : ، وهى وإن تأخرت فى ترتيبها إلا أنها مقدمة فى أهميتها ، قضية فلسطين ، فإن زيارة فضيلة المرشد العام للخطوط الأمامية كان لها آثارها الكبيرة . منها اطلاع فضيلته بنفسه على الحياة التى يحياها المرابطون وبسالتهم رغم البؤس الأليم الذى يعانونه ، وعلى الهول الذى يعيش فيه اللاجئون . ومنها الشعور العجيب الذى بعثته الزيارة حتى بين مخيمات اللاجئين التعساء ، والذى تجلى فى هتافاتهم ودموعهم وحرارة استقبالهم وتوديعهم فى كل مكان ، فإن قائد الإخوان يمثل عندهم حركة جادة تعنى ما تقول ، وحجتها بين يديها فى شهدائها على طول المنطقة من رفح إلى بيت المقدس . ومنها التوجيه العملى الذى صارح فضيلته الناس به قبل أن يترك القدس ، وهو أن الذى يقاسى مرارة الكفاح هم أهل القرى الأمامية وحدهم ، أما من وراءهم من أهل المدن الأخرى فإنهم لايزالون مقصرين فى حقهم ولا يزالون يأكلون ويشربون وينامون ملء الجفون كأن الأمر لا يعنيهم ، مع أنهم أولى أن يحسوا بالخطر ويتحملوا تبعاته قبل أن يتوقعوا ذلك من العرب والمسلمين . ومنها : خروج المرشد من الأردن متأثرا بكل ما رأى وسمع وحرصه على تذكير الناس به فى كل بلدة زارها وفى كل اجتماع تحدث فيه ؛ ومن العبارات التى ترددت على لسان فضيلته أن قضية فلسطين هى قضية الإسلام الأولى وأن المرابطين على الحدود لا يدافعون فى الواقع عن قراهم وحدها ولكنهم يدافعون فى الحقيقة عن دمشق وبغداد والقاهرة وبيروت ومكة والمدينة وسائر عواصم العالم الإسلامى . وإن مساعدتهم بالمال والسلاح فرض على المسلمين .

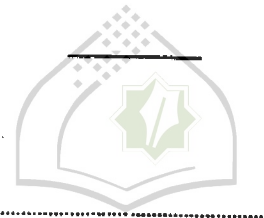
***

ولعلنا فى غنى عن التحدث عن الحفاوة العجيبة التى قوبل بها فضيلته فى المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية ولبنان وسوريا ، فقد تناقلتها الصحف فى حينها ، ولكننا نحب أن نؤكد الحاجة إلى أن تمتد مثل هذه الرحلة فى المستقبل لتشمل مختلف الأقطار الإسلامية .

Start My Dear

This is the way, quite simple and clear. It is now up to you, brother, to make the start, humble though the start may be, but do not hesitate to BEGIN my dear. With the help of God, you can do a lot if only you are serious and true. Decide and repent. change bad companions and search for a good group in the light of these high ideals. When you have made the start you shall not fail to find many like yourself devoted to such ideals, and scattered like flowers in your society.

If these words, humble but rising from the depths of my heart, succeed to convince you to go ahead with a strong belief and a firm resolution, then I shall have reaped all their fruits.



تنبيه ورجاء

١ — ترجو إدارة المجلة من حضرات المندوبين والوكلاء أن يتكرم كل منهم — مشكورا — بإرسال ما لديه من حساب اشتراكات العام الثالث .

٢ — كما ترجو ممن يرغب فى تجديد اشتراكه للسنة الرابعة من حضرات القراء أن يبادر إلى ذلك حتى يتسنى للمجلة الاستعداد للعام الجديد .

٣ — لا زال باب الاشتراك مفتوحا للنصف الثانى من السنة الثالثة لحضرات المشتركين فى نصف السنة الأول ولم يجددوا اشتراكاتهم .

« الإدارة »

brother's sufferings in any part of the Muslim World. After a deep slumber in the Middle East we could see Muslims prepared like anything to sacrifice their lives in Palestine and we have already seen what wonders could the volunteers perform before the mysterious politics interfered to bring about their sad tragedy. I will never forget it: a young man of nineteen years woke up to pray Fajr in the cantonment at Jerusalem dancing with joy. We asked him the reason of such happiness. He replied, "I have seen my bride and residence in the paradise." We took it as a joke till it was 10 o'clock in the morning when we were informed that the lucky boy had been killed in the battle and through martyrdom had gone to greet his bride in his heavenly residence.

Who To Lead

That is the question I am often asked when I insist that the time is ripe when the leadership of the world must come once again in the hands of the Muslims if only they approach their God with a sincere devotion. But such a question I always consider as a pretext for shirking duty. Islam is always direct and practical. The moment we know that the time demands a thing and Islam enjoins it, we should not hesitate in doing it. If a thing is to be done, it must be done. If there is some one to lead us he is welcome from the bottom of our hearts and we are to him most obedient soldiers he ever dreamt of. But if such a leader does not exist then I must lead myself, you must lead yourself, we must supplement each other and exert ourselves to the utmost in order to complete ourselves. And here dear Brother, let us shed away our weakness vacillation. There is nothing which only if you want to do, you cannot do. Who were the followers of our Prophet, (peace be on him), before starting their Jihad ? Definitely they were not better placed than yourselves. Who was Bilal Ibn Rabah ? A slave in Mecca ...... Who was Ali Ibn Abi Talib ? A boy of nine years ...... Who was Usamah Ibn Zaid ? A youngman of nineteen, illiterate and poor. It was Islam that enkindled their hearts and purified their beings. It was the passionate devotion to Truth that polished their minds, developed their talents and enabled them to surmount all obstacles.

That is how those who were but insignificant in the beginning came eventually to captain the whole earth.

WHAT ARE YOU ?

By the Editor

— 9 —

Let us, dear brother in Islam, hold this lamp with the help of God to show the right path to the bewildered humanity. The world to-day knows too bitterly that leadership of the West instead of bringing a progressive era of peace and prosperity has succeeded only in accentuating the conflicts of mankind in tearing man away from man and in making confusion worse confounded. All the pretence of culture and the show of civilization serve only to emphasise the rottenness of the Western standard as well as the bankruptcy of the Western Nations to solve 'the problems of man. What is justice if it means some-thing before the courts of New York, London, Paris and Moscow whereas it is senseless in Palestine, North Africa-Hyderabad & Kashmir. What is the value of social character when it refuses to be honest beyond the frontiers of one's own country or beyond the limits of one's own interests. Why raise such cries against exploitation when your only purpose is to exploit ? And what is the basis of peace when conflicting fancies and lusts are the real dominating factor in the International Politics ? How can peace stand ?

This Earth Has A God

This Godlessness must come to an end. This savagery must be fettered with Divine hands. This darkness must be dispersed with a new Divine Cry. "This Earth has a God."

Such a cry if cleanly offered will be granted by millions of hearts stifled everywhere. Seven hundred million Muslims spreading their wings from Tanja in the west up to Indonesia and far back in the East are prepared despite all their diseases to hear a fresh sincere, voice full of belief, calling on them. "Back to God again Muslims everywhere." The prophetic light has still its roots deep down into the hearts of Muslims: only it has grown a little faint and scattered in the Muslim World. Yet we continue to see it in mosques, in meetings, in towns and in villages. In every country there is a large number of Muslims who weep when they are reminded of God, of their ancient glory or of their

فهرس السنة الثالثة

أولا : الموضوعات

ثانيا : الكتاب

مطابع دار الكتاب العربي بمصر

أخي القارئ ....

السلام عليكم ورحمة الله

ولعلك بكل خير وعافية

وبعد : فهذا هو العــدد الاخير من عام المجلة الثالث بين يديك ، ولعلك لو علمت ما لقيناه هــذا العام من جهد وعنت لاشفقت علينــا ، ولشعرت معنا بنعمة الله على ((المسلمون)) ورعايته لها ... فقد نشات وليس فى يد صاحبها ((راس مال)) يتاجر به ، الا التوكل على الله فيما اعتزم من سد ثغرة كبيرة فى مجال الدعوة والتوجيه الى حقائق الاســلام الرفيعة . واعلن عن المجلة وليس فى دارها مكتب ولا كرسى ، ثم جاءت الاشتراكات فكانت الزاد الحلال المبارك للمشروع العزيز . وولدت المجلة تحمل روحا محببة لا فضل لاحد فيها ، ومستوى كريما لافضل كذلك لاحد فيه ، ومضت ــ والفضل لله وحــده ــ لا تزداد الا قوة فى مادتها واقبالا من الناس عليهــا ، حتى تجاوبت اصداء العاطفة والتقدير من زوايا العالم الاســلامى كله ، ولقد كنا نتلقى فى الوقت الواحد من جنوب افريقيا واقصى اندونيسيا وبلادالريف رسائل تفيض بالحب والثقة والامل ، فلا نجد لها جوابا الا دمعة الشكر لله ان قد تقبل عملا يعلم هو وحده انا لم نعتمد فيه الا عليه ولم نقصد به الا مرضاته ، والا ان نلقاه بوجه ابيض ونفس مطمئنة ...

ومضى العامان الاول والثانى ووارد ((المسلمون)) يكاد يواجه نفقاتها ، لا عن قلة فى المشتركين فهم والحمد لله يتضاعفون ، ولكن لمعاكسات الاستعمار التى جعلتنا نصر على تصدير المجلة الى بعض الاقطار كتونس والجزائر ومراكش رغم حيلولة السلطات دون وصولها احيانا لتنفير المشتركين،ودون وصول قيمتها الينا لتثبيطنا عن تصديرها ثم ان ظروف بعض الوكلاء فى اقطار اخرى لم تمكنهم من تحصيل الاشتراكات فى حينها، هذا الى جانب العدد الضخم من ((الهدايا)) التى لا تتحملها مجلة غير ((المسلمون)) لاعتبارات كثيرة لا بد منها .

وجاء العام الثالث وحدث اثناءه مايعلم الاخ القارىء ، وتكاثرت العقبات فلم تزدنا الا توكلا على الله ، وتاخر صدور بعض الاعداد لمـا لا قبل لنا بدفعه ، ولكنا نرجو ان يكون تاخرا فى الوقت وحده ــ لم تتخلف معه المجلة عن مستواها الذى ظلت والحمد لله مثابرة على تقويته من يوم نشاتها ، ولعلها كانت هذا العام اوسع خطى فى تحقيق رسالتها وتجلية مراميها .

وبعد ايها الاخ القارىء ، فانك لا تزال المسئول عن ((المسلمون)) فى نفسك وانت تقرا : ان تعمل بما فيها من خير ، وان تنصحنا ان رايت فيهاشيئا غير ذلك ، ومسئول عنها بعد ان تقراها فى مجتمعك الذى تعيش فيه : ان تبلغ رسالة الخير حيث كنت، وان تضم الى اسرة ((المسلمون)) من تستطيع ممن يتصلون بك .

والله من وراء القصد ، وهو وحده المستعان .

والسلام عليكم ورحمة الله

اخوك فى الله

سعيد رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات العدد العاشر

صفحة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر